عصر التنوير

Lettre sur les aveugles

ديدرو

رسالة حول العميان
من أجل المبصرين



نقلها إلى العربية
د. منتجب صقر

LIBERAL LIBRARY

طُبع في سوريا

«رسالة حول العميان:
من أجل المبصرين»

نقلها إلى العربيَّة منتجب صقر

الناشر: الدار الليبرالية/السويد
Liberal Library - Sweden
الطبعة الأولى، 2023

Sverige _ Östergötland _ Rörvassvägen 8
582 76
Linköping
رقم الترخيص، 802540-4875
+46 72 047 17 86 / +963968334411
llliberallibrary@gmail. com

Liberal Library

إن الدار الليبرالية غير مسؤولة بشكل مباشر عن آراء الكتاب إنما تنشر ثقافة مفتوحة بحيادية، وكُل كتاب يعبر عن آراء مؤلفه وإن كنا لا ننشر إلا ما نحن مقتنعون بأهميته ثقافياً سواء وافقنا الكاتب أم لا، ونحن ملتزمون بقيم الحرية الفكرية بأعلى مستوياتها والاختلاف حالة طبيعية فلا نلزم أحد بقراءة منشوراتنا.

شعارنا

حرية الاختيار تعني اختيار الحرية، فالحرية لا تختار إلا ذاتها.

«رسالة حول العميان: من أجل المبصرين»

للمفكر الفرنسي دوني ديدرو

(الأعمال الكاملة 1)

نقلها إلى العربيَّة
منتجب صقر

2023

تقديم:

يعدُّ دوني ديدرو (1713-1783) من أهمّ كتّاب عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وهو مؤلف ومدير أوّل موسوعة علميّة وفنيّة في ذلك القرن، كتبها وأدارها خلال عشرين عاماً بعنوان «موسوعة أو قاموس معقلن للفنون والآداب والمهن».

أجمعَ معظمُ المفكرين الذي كتبوا في موسوعة ديدرو على الثقافة المذهلة والاطلاع الواسع على العلوم والمعارف التي كان يتحلى بها ديدرو، فقد كان يهتم بكلّ شيء ويدرك كلّ شيء، وهذا ما جعله مفكراً عالميّاً منذ القرن الثامن عشر.

لم يكن ديدرو معروفاً في القرن الثامن عشر كما نعرفه اليوم على أنّه كاتب روايات مثل «جاك المؤمن بالقدر» (Jacques le fataliste)، «الراهبة» (La Religieuse)، وكتاباته حول المسرح «تناقضات حول

المثل المسرحيّ» (Paradoxe sur le comédien)، بل اشتهر كمدير الموسوعة الفرنسيَّة العلميَّة.

كانت تلك الموسوعة أهم مؤسسة ثقافيَّة في القرن الثامن عشر، وقد كان يأمل ديدرو أن يساهمَ بتغيير طريقة التفكير في عصره، وفي العصور القادمة، وكان يؤكّد على أصدقائه أنَّ الموسوعة ليست تراكماً المعلومات والمقالات العلميَّة والفنيَّة فقط، بل هي أداة لنشر العلم والمعرفة.

نجد فيها وصفاً للمهن التقنية ولا سيما أسرار الورشات التي يقيمها الحرفيون، حيث كان ديدرو يذهب إليها، يراقب أعمالهم، ويرافقه رسام، وكانت تلك المرة الأولى التي يرسم رساماً صوراً توضيحيَّة حول أعمال الكتّاب، كان يصف أعمال الحرفيين من رجال ونساء، حركاتهم، شعورهم، إحساسهم بالعمل، وكان يصفُ كلَّ شيء: عمل المزارعين والعمال، وكان يطلب من أصدقائه أن يكتبوا مقالات علميَّة متنوعة عن المهن، العلوم، عادات الشعوب، الفلسفة، الرياضيات، الآداب، ...

بعد مائة عام على رحيله، عدّه النقاد أحد مؤسسي العصر العلميّ الحديث الذي شهد انطلاقة الثورة الصناعيَّة في أوروبا ولاسيَّما في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، ومن بين كتاب التنوير الذين دعاهم ديدرو للكتابة في الموسوعة نذكر «جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau)، مونتسكيو (Montesquieu)، فولتير (Voltaire)، بومارشيه (Beaumarchais)، والفارس دوجانكور (Le chevalier de Jaucourt) الذي كتب سبعة عشر ألف مقال وحده، وغيرهم.

كانت الموسوعةُ تصدر جزءاً تلو الآخر، وفي العام 1751 أصدر ديدرو الجزأين الأوَّل والثاني، وفي العام التالي 1752 مُنعت الموسوعة بأمر من الملك إثر النقد العنيف الذي وجَّهه لها اليسوعيون حول الأفكار المعادية للدين، وبفضل مساعدة مالزيرب (Malesherbes) الذي كان يعمل مستشاراً في بلاط الملك، استؤنف عمل الموسوعة، حيث قام مالزيرب بحفظ أجزاء عديدة من الموسوعة وخبَّأها في بيته ليحميها من السرقة والحرق على

يد المتدينين المعارضين لأفكارها.

في العام 1757، قام اليسوعيون بحملة عنيفة ضد الموسوعة، طالبوا بإيقافها بعد اتهامها بتخريب العقول والإساءة للدين وللنظام الاجتماعيّ القائم، ومنع طباعتها وتوزيعها وتم حرقها في الساحات العامَّة، وقد توقفت عن الإصدار في العام 1759 عند الحرف G.

بعد فترة قصيرة، طالب الناشرون ديدرو وأصدقاءه المفكرين بمتابعة النشر، فقام بنشر الأجزاء المتبقية بطريقةٍ سريّة، خوفاً من الرقابة الدينيَّة والملكيَّة، وقد انتهى من الإشراف على كتابة الموسوعة عام 1766 بعد خمس وعشرين عاماً من العمل، وقد ضمّت ثمانية وعشرين مجلداً واحتوت على أكثر من ستين ألف مقال.

لمحة عن «رسالة حول العميان، من أجل المبصرين»

أحدث كتاب «رسالة حول العميان، من أجل المبصرين» المنشور عام 1749 ضجةً كبيرة في الأوساط الدينيَّة، وقد أثرّ هذا الكتاب على حياته، وشكّل خطراً على الموسوعة التي كان يديرها ويكتب فيها.

في العام ذاته، حُكم على ديدرو بالسجن لمدة ثلاثة أشهر في حصن قصر فانسين (Donjon de Vincennes) قرب باريس، بسبب الآراء الماديَّة والملحدة التي تضمنتها تلك الرسالة، رغم أنَّه قد نشرها في النسخة الأولى باسم مستعار.

اتُّهِمَ بكتابة أفكار جريئة ومعادية للعقائد الدينيَّة الكنسيَّة آنذاك، وفي تلك الرسالة يعاين ديدرو حالة الأعمى الرياضيّ المشهور ساندرسون (Saunderson) الإنكليزيّ الأصل، ونظرته إلى العالم القائمة على النظرة

المادِّيّة المستوحاة من الشاعر والفيلسوف اللاتينيّ لوكريس (Lucrèce)، باللاتينيَّة تيتوس لوكريتوس كاروس (Titus Lucretius Carus) الذي عاش في القرن الأوَّل الميلاديّ، ويعدُّ العالم بوصفه ليس صنيعة الآلهة، ولا نهاية له، وهو نتيجة الصدفة؛ أي إنَّ هناك عالماً بلا إله.

قاده عرض هذه الفكرة في كتابه «رسالة حول العميان، من أجل المبصرين» إلى الاعتقال وتقييد حريته، وكلَّما كانت الأيام تمضي في السجن كلما زاد ضغط الناشرين على الملك لويس الخامس عشر (Louis XV) لإخراجه، وقد سمحت له السلطات الملكيَّة لاحقاً باستقبال أصدقائه في السجن ولا سيَّما المفكر جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) الذي زاره عدة مرات.

قضى ديدرو تلك الشهور الثلاثة وهو غارقٌ في التفكير والتأملات الفلسفيَّة، ومنذ تلك الحادثة بدأ يكتب بحذر

كي يتفادى السجن مرة أخرى، وقرَّر ألَّا ينشر كتباً تزعج المتدينين.

في كتابه «رسالة حول العميان: من أجل المبصرين»، قدَّم ديدرو نقداً تجريبيّاً للأشخاص العميان الذين تنقصهم حاسة البصر، لكنَّهم يتمتعون بقوَّة حاسة اللمس، ويشرح تفاصيل تلك الحاسة وكيف يتعلمون الكتابة والقراءة عبر جداول توضع عليها دبابيس نافرة، وهو يظهر ذكاءهم الخارق وحساسيتهم المفرطة، وخصوصاً لدى العالم الإنكليزيّ سوندرسون (Saunderson) الذي تلقى علومه الكثير من الأشخاص، وفي نهاية رسالته يتكلم عن ابنة السيدة دو بلاسي (Madame de Blacy)، التي تتمتع بذكاء خارق في حديثها وطريقة حياتها رغم فقدها للبصر لكنَّها ذات روح عظيمة كما يقول ديدرو.

يضع ديدرو حاسة البصر في موضع مساءلة، ولا يقدّم

نفسه بوصفه منظّراً أخلاقيّاً، ولا يكتب تقريراً ميتافيزيقياً أبداً، بل يظهر تفوق الشخص الأعمى على أقرانه المبصرين عبر ذكائه المبطن وعبر حاسة اللمس لديه، وهو لا يتردَّد بذكر ديكارت، نيوتن، والكثير من العلماء وآرائهم حول هذا الموضوع، وهنا يمكننا أن نقولَ أنَّ ديدرو يفلسف ظاهرة العمى، ويفلسف حركات الأعمى ونظرته للكون أيضاً: كيف يرى الأعمى الحياة، وكيف يفكر حقيقةً؟، ولا سيَّما في نهاية الرسالة، عندما يتحاور سوندرسون (Saunderson) مع الوزير الذي زاره وهو على فراش الموت، ويلخص معظم أفكاره الميتافيزيقيَّة التي تتجاوز الفكر الوضعيّ، لأنَّ سوندرسون (Saunderson) كان على اطلاع شبه تام بعلوم الرياضيات والهندسة والجبر، وعبر شرح كلّ علوم سوندرسون (Saunderson)، يبدو أنَّ ديدرو يركز على فقدان البصر، ويرفض أن يعيدَ العالم إلى حاسة البصر فقط، إنَّه يعدّ أنَّ الحواس الأخرى مجتمعة يمكن أن تعوّض فقدان البصر، ويمكن أن

تكون هذه الحواس الأخرى حواساً بديلة يتكيف معها الإنسان ويستمر مع فروق بسيطة عندما يتعلّق الأمر بالألوان والأشكال الدقيقة التي يصعب على الأعمى تخيلها.

في «رسالة حول العميان: من أجل المبصرين»، تتركز التجربة النقديَّة التي يقدّمها ديدرو على الحواس بحدّ ذاتها، فهو يتساءلُ حول حياة المولودين عمياناً، فيحلّل خطابهم، ويحاورهم أيضاً، ويجد أنَّ لديهم حساسيَّةً خاصَّةً لا يمتلكها الأشخاص المبصرون.

نشيرُ إلى أنَّ هذه الرسالة موجَّهة إلى السيدة مادلين دارسان دو بويزيو (Madeline d'Arsant de Puisieux) التي لم تحضر عمليَّة تصحيح البصر التي قام بها السيد ريامور (Réamur).

تدورُ رسالته حول التبريرات التي يقدمها ديدرو لتلك السيدة كي يقنعها بفكرته، وهذا ما يسمى بأسلوب

المحاججة أو أسلوب البرهان، فهو ينشئ جملاً طويلة جداً وملفتة، وتستمر الجملة لخمسة أو عشرة أسطر أحياناً كي يصل إلى غايته، أو ما يسمى في التحليل الأدبيّ «العبرة»؛ لأنَّ أسلوبَ الكتّاب في القرن الثامن عشر معروف بتلك الالتفافات الطويلة وتلك الجمل التي تبدو مواربة أحياناً لكنَّها قد أنشئت بشكل طويل لكي تصل إلى هدف معيّن، وهذا ما نراه أيضاً في جمل الكاتب مارسيل بروست (Marcel Proust) الذي كتب روايته الشهيرة «البحث عن الزمن المفقود».

يُظهر ديدرو عمياناً قد حولوا فقدان البصر إلى ناحية إيجابيَّة، وتعاملوا معه بشكل ماديّ بالمعنى المحسوس للكلمة، فهو يقول إنَّ الحرمان من نعمة النظر يؤدي إلى إبراز حواس أخرى وإيقاظها بشكل أقوى؛ إنَّه يتحدث غالباً عن أعمى بيزو (Puisaux)، وأيضا العالم سوندرسون (Saunderson) المختص بالهندسة، والآنسة مولينو (Mademoiselle de Molineux)

تلك الفتاة الماهرة في كلّ شيء رغم فقدانها بصرها.

إنَّه يركز على لحظة الانتقال تلك التي تتبع عمليَّة تصحيح البصر للمولود أعمى، هل يمكنه بعد دقائق قليلة من العمليَّة أن يميز المكعب عن الدائرة؟ فهو يشرح تلك الآليَّة بدقة متناهية، ويربطها بحاسة اللمس لدى الأعمى الذي يكتشف المكعب عبر فكرة المكعب عندما كان بلا بصر، هذا ما يمكن أن نسميه بالفلسفة التجريبيَّة التي يُعَدُّ ديدرو من أحد روادها؛ لأنَّه يفلسف حول تجربة محسوسة قد رآها وعايشها وتعرف على أشخاصها، وهو لا يتكلم عن فلسفة نظريَّة بحتة بعيدة عن تجارب وحياة الآخرين، بل يقدم وبشكل منهجيّ حقائق ووقائع، ومن ثم يحلّلها لكي يصل إلى الاستنتاجات ويبرهن على نظريّته أمام تلك السيدة.

إنَّ أهمَّ خصائصِ هذه الرسالة هي محاولة ديدرو تفادي أيّ عقائديَّة معيّنة أو منهج نقديّ كلاسيكيّ؛ أي إنّه لا

ينطلق من فكرة ثابتة بل يحاول البحث عن العناصر الكاملة التي يتحلَّى بها المولود أعمى، ثم يحلّل طريقة حياته كي يصل إلى قناعات فلسفيَّة معينة.

لا يقيدُ ديدرو نظرته حول هذا الأعمى بأفكار سابقة بل يقدّم تجارب مختلفة عن حالات خاصَّة بأولئك المولودين عمياناً، يحاورهم، ويضع تلك السيدة التي يوجّه لها الخطاب أمام منطق متعدد الأصوات ومتعدد الرؤى.

يحاول ديدرو أن يظهرَ الميزات الجيدة لدى المولود أعمى، ويقول إنَّه إنسان ذو ذكاء متقد، ويشدّد على حالة أعمى بيزو الذي يشرح مهاراته المميزة والأصليَّة، فقد كان أبوه فيلسوفاً وقد تربى هذا الأعمى على مبادئ الفلسفة؛ إنَّه رجلٌ ماهر يتقن أيّ شيء يصنعه، ويستطيع مثلاً أن يُدخل الخيط ضمن ثقب الإبرة، وله ذاكرة عجيبة من أصوات الحيوانات والبشر أيضاً على حد سواء.

عبر هذه الصورة الحيَّة لأعمى بيزو ربما يقوم ديدرو بعمليَّة نقد مباشرة للإنسان المعاصر الذي يمتلك حاسة البصر لكنَّه أعمى البصيرة، كأنَّه يقول إنَّ فقدان البصر ليس أمراً ذا أهميَّة، بل فقدان الحاسة الحيَّة للإنسان، فقدان الإحساس بالأشياء وبالأشخاص هي أصعب من فقدان البصر.

نلاحظ أنَّه يستعرض أربع نقاط هامَّة لدى المولود أعمى أيضاً: حياته اليوميَّة، معرفته بالعالم، مسألة الأخلاق والمسألة الميتافيزيقيَّة لديه.

إذا استعرضنا الحياة اليوميَّة للأعمى نجد أنَّ ديدرو يقدّمُ أعمى بيزو على أنَّه صديق للنظام: إنَّه يستيقظ عند هبوط الليل، ويرتبُ أشياءه في الغرفة، وهذا ما يسميه ديدرو المنطق الخاصّ بالأعمى؛ إنَّه يستعرضُ أفكارَه حول الجمال وحول الشيء الاصطلاحيّ لديه، حين يقول هذا الشيء جميل فهو لا يحكم عليه مسبقاً،

وإنَّما ينقل حكم الآخرين، لأنَّه لا يستطيع أن يقدّر الجمال بنظره بل يستطيع أن يسمعنا ما قد سمعه حول هذا الجمال.

نجد إذاً أنَّ ديدرو ينتقل إلى فكرة ربط الجمال باللغة، وأنَّ اللغة هي حاملة للمعنى الجماليّ للشيء وخصوصاً عند العميان، وحين يتحدّث ديدرو عن المرآة التي يقترحها بعض الأشخاص للأعمى، يقلّلُ ديدرو من حاجة المولود أعمى للمرآة كي يكتشفَ تفاصيل وجهه، بل إنَّه يحتاجها للمس ولمعرفة توضع يده أو رؤوس أصابعه على الأشخاص الذين يقابلهم، وهنا يمكننا أن نلاحظ تركيز ديدرو على صفة الكناية، أو الصفة الصوريَّة للغة التي يستخدمها العميان وبحساسيَّة خاصَّة بهم.

تتعلّق النقطة الثانية بمسألة المعرفة لدى المولد أعمى: يخلص ديدرو إلى أنَّ منبعَ الأفكار الخاصَّة بالمولود أعمى هو اللمس، فإذا كانت معارفنا تتعلّق بالرؤية فإنَّ معارف

المولود أعمى تتعلّق بالأشياء المحسوسة عبر اللمس، وإذا سأل أحدهم المولود أعمى حول المرآة فإنَّه سيقدّم تعريفاً خاطئاً لها لأنَّه لا يراها، وهذا أمر منطقيّ، فهو لا يملك سوى يديه لمعرفة وظائف المرآة، وهنا نذكر مقطعاً من النص حين يسأله ديدرو «ما هو تعريف المرآة؟ يجيب أعمى بيزو (Puisaux): «إنَّها آلة».

يربطُ ديدرو إذاً حاسة اللمس بحاسة الرؤية لدى الأعمى؛ إنَّه لا يرى بعينيه وإنَّما يرى عبر أصابعه، وهذه هي الفكرة الأساسيَّة لتحصيل المعارف لدى المولود أعمى، ثم يعرض ديدرو موقف الأعمى تجاه التليسكوب حيث إنَّ الأعمى لا يستطيع الإحساس بهذه الآلة لأنَّها مبنيَّة وقائمة على الرؤية، وهذه تشكل نقطة ضعف لديه، حتى أنّ حاسة اللمس لا تسمح له باستخدام هذه الآلة، ثم يقوم باستعراض رأيه حول اكتشاف الأعمى للألوان، وهذه مهمة شاقة أمام المولود أعمى أيضاً؛ لأنَّ الألوان تنطبع في الذاكرة وليس من السهل على المولود أن يميز

بين لون وآخر إلَّا في حالات نادرة كما هي حالة الآنسة مولينو (Mademoiselle de Molineux).

المسألة الثالثة الأخلاق: عندما يعاين ديدرو موضوع الأخلاق عند المولود أعمى يستعرض الأخلاق العالميَّة؛ أي ما هو متعارف عليه في كلّ مكان وزمان، ويقارن بين الأخلاق والفضيلة وأصلها في الدين المسيحيّ، وهذه النقطة قد أثارت له العديد من المشاكل وخصوصاً لدى المؤسسة الدينيَّة الحاكمة آنذاك التي تسببت في سجنه لأنَّه انتقد الحكم الدينيّ لدى رجال الدين وأحكامهم الغامضة وغير المبررة فهو يشبّه رجال الدين بالعميان؛ إنَّهم ثابتون حول آراء يمكن نقضها، وهم يضعون الاصطلاحات الدينيَّة التي ليس من حقّ البشر أن ينتقدونها كأنَّهم عميانٌ ينطلقون من ذاكرة سماعيَّة أو من حاسة اللمس، ومن هنا فإنَّ هذا المقطع قد أثار حفيظة رجال الدين والكهنة، الذين قدموا شكوى للملك، وتم سجنه لمدة ثلاثة شهور في حصن فانسن (Donjon de Vincennes) شرق

باريس، وحين يقارن ديدرو حالة المولود أعمى الذي ارتكب جريمة وعندما مثَلَ أمام القاضي، قال له هذا الأخير: «ستدخل إلى الزنزانة مدى الحياة!».

يقول ديدرو على لسان الأعمى: «إنَّني موجود فيها منذ ولادتي!»، يمكن اعتبار هذا الجواب نوعاً من السخرية، ففي منطق الأشياء ليست العقوبة أن نضع الأعمى في السجن، فهو موجود في سجن يشكّله فقدان البصر.

في هذا الصدد، يعتبر ديدرو أنَّ الأعمى يملك احتراماً خاصاً لذاته كونه قادراً على الإحساس بالأشياء التي لا يحس بها الناس المبصرون، وهو يفرّق بين موضوع الشفقة المسيحيَّة عند الناس المبصرين وعند العميان وهنا يذكر المشاجرة التي ضرب خلالها أحدُ العميان أخاه، وفجّ له رأسه، وعلاقته مع الشرطة، والتفاوت الطبقيّ والاجتماعيّ الذي لا يقدّره الأعمى كما يقدّره المبصر،

وبالنسبة إلى المولود أعمى إنَّ كلَّ من يقترب من حواسه ويزعجه يعدّ الأمر إهانة لشخصه ولحياته حتى لو كان أحد أخوته، وهنا فإنَّ الفروقات الاجتماعيَّة بالنسبة إلى العميان مختلفة عن تلك التي يقدرها المبصرون.[1]

يتطرق ديدرو حول موضوع الأخلاق إلى مسألتين هامتين: السرقة والحشمة، ثم يشرح أنَّ المولود أعمى لا يستطيع أن يحس بوجود السارق، فمن السهل جداً سرقته دون أن يرى من سرقه، كما يعجز الأعمى عن السرقة لأنَّ من السهل رؤيته وهو يسرق، إذاً إنَّ الحرمان من حاسة البصر تجعل الإنسان ذو أخلاق معيّنة، على الأقلّ، فيما يتعلَّق بالسرقة، أمَّا عن موضوع الحشمة فإنَّ المولود أعمى يتعجب لماذا عليه أن يغطي بعض أجزاء جسده، وهو لا يراها أصلاً كي يحسن تغطيتها.

---

(1) انظر مقدمة كتاب «رسالة حول العميان: من أجل المبصرين»، دوني ديدرو، دار نشر فلاماريون (Flammarion)، باريس، 1999.

إنَّ النقطة الرابعة التي يشدد عليها ديدرو هي المسألة الميتافيزيقيَّة، وهو يقوم على نوع من التفكير حول الدين، ويستعرض مشاكل الدين من الوجهتين الأخلاقيَّة والميتافيزيقيَّة، فهو يقوم بدارسة آليَّة الدين وخصوصاً الإيمان بالعقائد والمفاهيم الغامضة، ويظهر أنَّ دلائل وجود الله ليس لها أيّ أثر على المولود أعمى سوندرسون (Saunderson)، ويقدّم الحجج والبراهين التي يؤمن بها هذا الأعمى أيضاً، وتقوده لإنكار الألغاز وكلّ ما هو غامض.

يقول أعمى سوندرسون (Saunderson): «نحن نسمّي كلّ ما يتجاوز إحساساتنا بالشيء العظيم»، وينتقد ديدرو المؤسَّسة الدينيَّة على لسان سوندرسون (Saunderson) الذي لا يرى وعليه رغم كلّ شيء أن يؤمنَ بشيء يؤمن به الآخرون.

إذاً يقوم ديدرو بنوع من المقاربة بين عالم العتمة، وعالم

الجهل، وهنا يريد ديدرو إظهار الدين على أنَّه مرتبط بالإشارات البصريَّة وأنَّ العميان غافلون تماماً عن كلّ ما هو دينيّ، وأي مفهوم مرتبط بحاسة البصر كونهم فاقدين لها، فالأعمى الذي يعيش في عالم الظلمات يفتقد إحساس هذا العالم الشكليّ أو البصريّ وعليه أن يقومَ بمجهود مضاعف كي يحس به عبر خياله، وعبر ما يروى له من الأشخاص المبصرين، ومن جانب آخر إنَّ الميتافيزيقيا الخاصَّة بالأعمى هي نقدٌ للأمور الغامضة التي تنشأ من الأديان، على سبيل المثال: لا يستطيع المولود أعمى سوندرسون (Saunderson) إدراك وجود الله انطلاقاً من منظر الطبيعة وجمالها، ومن نظامها وتناسقها، فهو لا يستطيع أن يشعرَ بكلّ هذه المناظر الجماليَّة لأنَّه لا يُبصر.

أثار كتاب ديدرو «رسالة حول العميان: من أجل المبصرين» منذ صدوره عام 1749 وحتى يومنا هذا، جدلاً فلسفيَّاً هاماً، ويعدّ من أوائل الأطروحات الفلسفيَّة

حول مسألة العمى والمولودين عمياناً؛ إذ إنَّ ديدرو لم يكتفِ بالكتابة من بنات أفكاره، بل انطلق من الملاحظة الدقيقة لحركات المولودين عمياناً، وسجل حواراته معهم، وبعد ذلك قدّم لنا هذا الرسالة القيمة التي آمل أن تضيف دفعاً جديداً للقارئ العربيّ وللمكتبة العربيَّة على حدّ سواء.

د. منتجب صقر

«رسالة حول العميان: من أجل المبصرين»[1]

كنتُ أشكّ يا سيدتي[2] أنَّ المولود أعمى الذي صحح بصره للتو السيد ريامور (Réaumur) لن يعلمك ما كنتِ تريدين معرفته، لكنَّني لم أكن أخشى أن أتنبأ بأنَّها قد لا تكون خطيئته ولا خطيئتكِ.

التمستُ مساعدة ذلك الشخص الذي أعانه أصدقائه والمجاملات التي قلتها له ولم أحصل على أيّ شيء: رفع جهازه الأوَّل من دون علمك، وقد نال بعض الأشخاص المرموقين الشرف لمشاركتهم رفضه، أي بعبارة واحدة:

(1) نشر ديدرو هذه الرسالة عام 1749 باسم مجهول، ثم طبعت أول مرة باسمه الحقيقي في العام ذاته لدى ناشر فرنسي في دار «في لندن» (A Londres).

(2) الرسالة موجهة للسيدة مادلين دارسان دو بويزيو (Made-line d'Arsant de Puisieux)، وهي كاتبة معاصرة لـ دوني ديدرو، ألفت روايات ودراسات حول أخلاق القرنَ الثامن عشر، وقع ديدرو في غرامها عام 1745، وقد ساعدها في كتابة بعض أعمالها. (المترجم).

لم يشأ أن يسدل الستارة عن عينيه إلّا أمام بعض الأعين وبدون نتيجة، وإذا كان لديك الفضول لمعرفة ما يقوم به هذا الأكاديمي من خبرات سريّة ولا يمكن أن يشهدَ عليها -وفقاً لرؤيتك- عدد كبير من الشهود المتنورين فإنّني سأجيبك أنَّ ملاحظات رجل مشهور جداً لا تحتاج لعدد قليل من المتفرجين حين يقوم بها، وعلى العكس لا تحتاج لعدد كبير من المستمعين حين يقدمها.

هكذا عدت يا سيدتي إلى مخططي الأوَّل، وقد كنت مجبراً على التخلي عن تجربتي حيث لم أكن أرى فيها شيئاً مفيداً، لا من أجل تعليمي ولا من أجلك، لكن السيد ريامور (Réamur) سيستفيد منها لو أنَّه كسب رهانه بدون شك.

بدأت التفلسف مع أصدقائي حول المادة المهمة وهدفها، كم سأكون سعيداً إذا كانت حواراتنا ستبرهن لك عن العرض الذي وعدتك به طويلاً.

في اليوم الذي أجرى فيه العالم البروسي[1] بريمر (Bramer) عمليَّة تصحيح البصر لابنة سيمونو (Simoneau)، ذهبنا لنسأل المولود أعمى في منطقة بويزو[2] (Puisaux)، وهو رجل ذو ذكاءٍ واضح، ومعروف من قبل الكثير من الأشخاص وله اطلاع بسيط على الكيمياء، وقد تابع بنجاح كبير دروس علم الأحياء في حديقة الملك البيئيَّة، وكان أبوه يدرّس الفلسفة ويحظى بنجاحٍ كبير وتصفيقٍ حاد في جامعة باريس.

كان يتمتع بثروة من ماله الشريف، ومن خلاله قام بإشباع كلّ ملذاته، لكن لذة المتعة كانت تعيده إلى شبابه وقد زادت عن حدّها، وكانت تزعجه أعماله المنزليَّة فانكفأ في قريةٍ صغيرة في الريف، وكان ينطلق منها إلى رحلةٍ سنويَّة إلى باريس، يُحضّر فيها مشروبات ويقطرها وقد نالت على رضى الناس، هنالك يا سيدتي ظروف فلسفيَّة بعض الشيء لكن لهذا السبب بالذات وحدك من

(1) طبيب عيون بروسي. (المترجم).

(2) وهي مدينة صغيرة في منطقة غاتنياس (Gâtinas). (المترجم).

يستطيع الحكم أنَّ هذا الشخص الذي أتحدث عنه لم يكن متخيلاً أبداً.

وصلنا إلى عند الأعمى حوالي الساعة السادسة مساءً ووجدناه مشغولاً بتعليم ابنه عبر حروف نافرة، وكان قد استيقظ من النوم منذ ساعة لأنَّك ستعلمين أنَّ نهاره يبدأ عندما ينتهي نهارنا، اعتاد أن يهتم بأعماله المنزليَّة وأن يعمل خلال وقت راحة الآخرين، وعند منتصف الليل لا شيء يزعجه، ولا يزعج أحداً.

كان اهتمامه الأوَّل منصباً على ترتيب الأشياء التي جلبها خلال النهار، وحينما تستيقظ زوجته، كانت ترى البيت مرتباً كما في العادة.

إنَّ الصعوبةَ التي يجدها العميان في التعرف على الأشياء المبعثرة تجعلهم يتقنون التنظيم، وقد لاحظت أنَّ هؤلاء الذين تربطهم بهم علاقة عائليَّة يقاسمونهم تلك الخاصيَّة، إمَّا عبر القدوة الحسنة التي يظهرونها، وإمَّا عبر شعور الإنسانيَّة الذي يعترينا نحوهم.

كم سيكون العميان تعساءً دون تلك الاهتمامات الصغيرة القادمة من الأشخاص المحيطين بهم! إنَّ الخدمات الكبرى تشبه قطع الذهب أو الفضة الكبيرة التي تستخدم نادراً، لكن الاهتمامات الصغيرة تبدو كالعملة المتداولة التي نستخدمها.

يحكم أعمانا على الأشياء المتناظرة بوجه جيد، وإنَّ التناظر هو أمرٌ شكليٌّ اصطلاحيٌّ فيما بيننا، وبالتأكيد هناك الكثير من الفروق بين الأعمى وأولئك الذين يبصرون، ومن كثرة دراسة توضّع الشيء، عبر اللمس، الذي يقوم به بين الأجزاء التي تؤلّف الكلّ، ولكي نسميه «شيئاً جميلاً»، يتوصل الأعمى للقيام بتطبيق واحد لفهم هذا المصطلح، لكن عندما يقول «هذا الشيء جميل»، فهو لا يحكم عليه بل يذكر رأي أولئك الذين يبصرون، ماذا يفعل ثلاثة أرباع الأشخاص الذين يبدون رأيهم حول مسرحيَّة بعد أن سمعوا عنها أو بعد قراءتها في كتاب ما؟

بالنسبة للأعمى الجمال ليس سوى كلمة، عندما تنفصل

عن حاجتها وبالاستغناء عن عضو ما، إنَّه يفقد الكثير من الأشياء الضروريَّة، ألم يحسن العميان الشكوى من اعتبار ما هو جميل جيداً؟ كم يفقدون معنى الأشياء الرائعة! وإنَّ الشيء الجيد الذي يعوضهم عن ذلك الفقدان هو أنَّ لديهم أفكاراً عن الجمال وعن الحقيقة التي لا تُسمع جيداً لكنَّها أوضح من الفلسفات الثاقبة التي تم تداولها لوقتٍ طويل.

يتحدث أعمانا عن المرآة في كلّ لحظة، هل تعتقدون أنَّه لا يعرف ما معنى كلمة «مرآة»؟

معنى ذلك أنَّه لا يضعها أبداً مقابل الشمس؛ إنَّه يعبّر بشكل حساس مثلنا عن مزايا ومساوئ العضو الذي ينقصه وإنَّه لا يربط أيّ فكرة بالمصطلحات التي يستخدمها، على الأقل، إنَّه يتميّز، عن سائر الأشخاص الآخرين، بكونه لا يتفوه بأيّ كلمة سيئة حولها، إنَّه يتحدث جيداً وبشكل صحيح عن أشياء كثيرة يجهلها تماماً، وإنَّ تواصله قد يمنعه من إتقان الحدس الذي نقوم

به جميعاً دون أن يعلم لماذا، وحول ما يحدث معنا وما يحدث مع الآخرين.

كنت أسأله ماذا كان يعني بكلمة «المرآة»، فأجابني «إنّها آلة، وهي تضع الأشياء بشكل نافر بعيداً عنها إذا كانت متوضعة بشكل جيد بالنسبة لها؛ إنّها مثل يدي التي لا يجب عليّ أن أضعها بجانب شيء كي أشعر بها».

كان على ديكارت (Descartes)، المولود أعمى، -كما كان عليه أن يكون- أن يصفق لذلك التعريف، في الواقع، أرجو منكم أن تلاحظوا الدقة التي لزمته كي يدمج بعض الأفكار ويتمكن من فهمها.

إنَّ أعمانا لا يعرف الأشياء إلّا عبر اللمس، وحول علاقة الأشخاص الآخرين بالأشياء، إنه يعرفها عبر الرؤيا وبشكل أقل عبر اللمس، وهذا هو المفهوم الوحيد الذي يمكن أن يدركه، وإضافةً إلى ذلك، إنّه يعلم أنَّ المرء لا يستطيع رؤية وجهه حتى لو لمسه.

إنَّ النظرَ هو نوعٌ من اللمس الذي لا يمتدّ إلَّا على الأشياء المختلفة عن وجهنا والبعيدة عنَّا، ومن جهة أخرى، لا يعطيه اللمس إلَّا فكرة الأشياء النافرة، إنَّه يضيف: «إذاً المرآة هي آلة تضعنا بشكل نافر خارج ذواتنا».

كم هناك من الفلاسفة المشهورين الذي استخدموا أشياءً أقلّ دقةً كي يصلوا لمفاهيم خاطئة كتلك، لكن إلى أيّ درجة يمكن أن تذهل المرآة أعمانا، كم سيزداد ذهوله عندما سنخبره أن بعض الآلات تُكبّر الأشياء وهناك آلات أخرى تنقلها وتقربها وتبعدها وتجعلها مرئية دون أن تضاعفَ من حجمها وتظهر أدق أجزائها في عيون الأشخاص الطبيعيين، وهناك آلاتٌ تجزّئها إلى آلاف الأجزاء وآلات تشوّهها تماماً!

على سبيل المثال، سألنا إن لم يكن هناك سوى من نسميهم الطبيعيين الذين يرون بالمجهر، وإذا كان علماء الفلك هم الوحيدون الذين ينظرون عبر المنظار الفضائيّ (التليسكوب)، إذا كانت الآلة التي تكبر الأشياء أكبر

من تلك التي تصغّرهم، وإذا كانت الآلة التي تصغّرهم أقصر من الآلة التي تبعدهم، لم يكن يفهم أبداً كيف تظهر الآلة هذا الآخر -أي نحن- وبشكل نافر كيف يفلت من حاسة اللمس، كان يقول: «حسناً، تضع هذه الآلة الصغيرة حاستان في موضعٍ متناقض، إنَّ هناك آلة صغيرة، آلة أكثر إتقاناً، قد توافق فيما بينهما دون أن تبدو الأشياء أكثر واقعيَّة، ربَّما هناك آلة ثالثة أكثر إتقاناً وأقلّ خداعاً تجعلهما يختفيان وسوف تعلمنا بالخطأ.



سأله السيد م (M): «وبرأيك ما هو الشيء الذي سيكون غير العيون؟ أجابه الأعمى: «إنَّه عضو يؤثر عليه الهواء كما يؤثر عصاي على يدي».

لقد أذهلنا هذا الجواب في حين أنّنا نظهر إعجابنا، أكمل حديثه قائلاً: «هذا صحيح، عندما أضع يدي بين عيني وبين شيءٍ ما، فإنَّ يدي حاضرة بالنسبة لك في حين أنَّ الشيء غائب عنك، والأمر ذاته يحصل معي عندما أبحث عن شيء ما بعصاي، وعندما أقابل شيئاً آخر».

سيدتي، افتحي كتاب «البصريات» لـ ديكارت (Descartes)، سوف تجدين فيه الظواهر المتعلقة باللمس ومستويات النظر المليئة بأشكال الناس المشغولين بالنظر عبر العصي[1].

لم يستطع ديكارت (Descartes)، ولا كلّ الذين أتوا من بعده أن يقدموا لنا أفكاراً واضحة عن الرؤية، وإنَّ

---

(1) إنَّ الصورةَ المقابلة هي إعادة (مكبرة) للنسخة الأصليَّة لـ «رسالة حول العميان»، في «خطاب حول الطريقة»، «علم البصريات»، «علم أحوال الطقس»، «الميكانيك والموسيقا»، مدينة ليد، 1637، في المجلد 4، يحاول العميان الرؤية عبر عصاهم، وهم يتكررون غالباً، وهم أشكال صغيرة كعقلة الأصبع، يلبسون لباس الشحاذين ويرافقهم كلب يتبعهم، يعيدنا ديدرو على الأرجح إلى نسخة العمل ذاته، التي أصدرها ب.ن. بواسن (P.N. Possen) عام 1724.

هذا الفيلسوف العظيم لم يقدم لنا، في هذا الخصوص، معلوماتٍ إضافية حول أعمانا، أكثر من تلك التي يقدمها الشعب المبصر.

لم ينتبه أحدٌ منا ليسأله عن الرسم والكتابة، لكن من البدهي أنَّه سيجيب على أيّ سؤال عبر المقارنة التي يقوم بها، ولا أشك أبداً أنَّه لم يقل لنا شيئاً، أي إنَّ محاولة القراءة والنظر دون امتلاك العيون تشبه عمليَّة البحث عن دبوس بواسطة عصا غليظة.

حدثناه عن هذه الأنواع من الأفق التي تقدم الأشياء بشكل نافر، وتتشابه كثيراً وتختلف كثيراً، في نفس الوقت، مع مرآتنا، وقد لاحظنا أنَّها تضر (الأفق) أكثر من كونها تساعدنا على تشكيل فكرة المرآة، وأنَّه قد فكر أنَّ المرآة -عندما ترسم الأشياء- فإنَّ الرسام كان يرسمها ربما كي يمثلها على تلك المرآة، أتينا وأدخلنا له الإبر المدببة.

سيدتي، هل يمكنك إيقاف قراءتك والبحث عن طريقة تصرف ما إن كنت في مكانه؟ وفي حال لم تجدين أيّ شيء ملائم هنا، سوف أخبرك ما يناسب أعمانا؛ إنَّه يضع فتحة الإبرة بشكل عرضي بين شفتيه، وفي اتجاه فمه ذاته، ثم بواسطة لسانه، عبر المصّ، يسحب الخيط الذي يتبع حركة نفسه إلَّا إذا كان كبيراً كي يفتحه، لكن في هذه الحالة، لا يجد الشخص المبصر نفسه محرجاً أكثر من الشخص المحروم من النظر؛ إنَّه يتذكر الأصوات بدرجة مذهلة، وإنَّ الوجوه لا تقدم لنا ملامح متعددة أكبر من تلك التي يلاحظها في الأصوات، وهي تملك بالنسبة له، تفاوتات متناهية وصغيرة، وتفلت من انتباهنا، لأنَّنا لا نستطيع أن نراقبها بالأهمية ذاتها كما يفعل الأعمى.

إنَّ الشخصَ الوحيدَ الذي نتذكره بشكل أقل من بين كل الأشخاص الذين رأيناهم هو ذاتنا، نحن لا ندرس الوجوه إلَّا كي نتعرف على الأشخاص، ذلك لأنَّنا لن نتمكن أبداً من اعتبار أنفسنا مكان الآخرين، والعكس صحيح.

من جهة أخرى، إنَّ المساعدات التي تقدمها حواسنا لبعضها البعض، وبشكل متبادل، تمنعها من أن تكون متقنة؛ هذه المناسبة ليست الوحيدة التي أقدم ملاحظاتي عنها.

يقول أعمانا لنا أنَّه قد يشتكي وبشدَّة من حرمانه من تلك المزايا التي نملكها، وأنَّه سيحاول أن يرانا بذكاءٍ عالٍ، حتى لو شعر لمئات المرات أنَّنا سنتخلى عنه لأسباب أخرى.

يقودنا هذا التفكير لتفكير آخر؛ إذ نقول: إنَّ هذا الأعمى يقدر نفسه كثيراً وأكثر ممَّا نراه، وإذا كان الحيوان يفكر، وحينما نمنح مزاياه للإنسان التي يعرفها جيداً أكثر ممَّا يعرف الإنسان نفسه، كيف لا نشك أبداً أنَّه قد يقدم حكماً مشابهاً؟

يرانا الفيل كالحشرات، وقد تدّعي الحيوانات التي تنسب لنا عقلاً أنَّنا نحتاج بقوة لفهم غريزتها، إنَّ لديها غريزة تستغني بها عن عقولنا، لدينا ميلٌ عنيف للمبالغة

بمحاسننا والتقليل من مساوئنا لدرجة يبدو أنَّه على الإنسان أن يصيغَ قانون القوة وعلى الحيوان أن يصيغَ قانون العقل.

فكر أحدنا وسأل أعمانا إن كان سعيداً بامتلاكه عينان، فقال: «لم يكن يهيمن عليّ الفضول، كنت أود أن امتلك ذراعان طويلان: يبدو لي أن يداي ستخبراني جيداً ما يحصل على القمر أكثر من عيونكم أو مجهركم الفضائيّ (تيلسكوب)، ثم إنَّ العيون تتوقف عن النظر قبل أن تتوقف الأيدي عن اللمس، يجب إذاً أن نطلقَ العضو الجسدي الذي أملكه قبل أن أُمنح العضو الذي ينقصني».

إنَّ أعمانا يخاطب الضجة أو الصوت وبثقة كبيرة لدرجة أنَّني أشكُّ أنَّ تمريناً كهذا يجعل العميان مهرة وخطرين جداً، وسوف أروي لك تفصيلاً سيقنعك كيف أنَّنا نخطأ بانتظار ضربة حجر أو التعرض لطلقة بندقيَّة من يده، لأنَّه قليلاً ما يعتاد استخدام هذا السلاح.

في شبابه، تشاجر مع أحد أخوته، وقد وجد نفسه في حالة سيئة جداً، بعد أن فقد صبره من الأحاديث المزعجة التي كانت تقال له، التقط أوَّل شيء وقع تحت يده ورماه به، أصابه في وسط جبهته فأوقعه أرضاً؛ إنَّ هذه المغامرة وبعض المغامرات الأخرى جعلت الشرطة تستدعيه. لا تفرض العلامات الخارجيّة الجلية للقوة التي تظهر لدينا بحيويَّة أيَّ شيء على العميان. وقف هذا الشخص أمام القاضي كما وقف أمام نظيره، لم تزعجه التهديدات أبداً، قال للسيد هيرو[1] (Hérault): «ماذا ستفعل بي؟ أجابه القاضي «سوف أرمي بك في زنزانة أرضيَّة»، أجابه الأعمى «حسناً سيدي، أنا موجود فيها منذ خمس وعشرين سنة.[2]».

ما هذا الجواب يا سيدتي؟ وما هذا النص الذي يكتبه شخص مثلي يحب فن الوعظ، نحن نخرج من الحياة مثل خروجنا من عرض يجعلنا نشعر بالنشوة، والأعمى يخرج

(1) ضابط شرطة.

(2) الكاتب كليمان (خمس سنوات أدبية، الرسالة 33).

بهذه الحالة من الزنزانة، إذا كنا سنعيش الملذات أكثر منه، فلنتفق إذاً أنَّه لا يتأسف على الموت.

إنَّ أعمى منطقة بويزو (Puisaux) يقدر مسافة القرب من النار وفقاً لدرجات الحرارة وامتلاء الأوعية، ومن جراء الضجة التي يحدثها سقوط المشروبات من وعاء لآخر، ومن تجاور الأجساد بجانبه ومن احتكاك الهواء على وجهه؛ إنَّه حساس جداً لأقلّ الحركات التي تحصل في الجو حتى أنَّه يستطيع تمييز الشارع من الزقاق المغلق؛ إنَّه يقدر كثيراً ثقل الأجساد وحجم الأوعية، وقد جعل من يديه ميزانين دقيقين ومن أصابعه فرجاراً ذو خبرة.

في تلك المناسبات التي يحدث فيها هذا النوع من الإحصاء، سوف أراهن دائماً على أعمانا فهو يعادل عشرين شخصاً مبصراً؛ إنَّ ملمسَ الجسد ليس لديه أيّ تفاوت بالنسبة له كما هي حال نبرة الصوت، وليس لديه ما يخشاه حين يخطئ بين امرأته فيعتبرها شخصاً آخر إلا إذا ربح شيئاً ما في هذا التبادل، مع ذلك، في الظاهر تتشابه

النساء بالنسبة للعميان في حين أنَّ قوانينهم صارمة إزاء علاقات الخيانة الزوجيَّة.

من السهل على النساء أن يخدعن أزواجهن بالاتفاق مع عشيقهن؛ إنَّه يحكم على الجمال عبر اللمس، ويمكننا فهم ذلك، لكن الأمر الذي ليس من السهل إدراكه هو أنَّه يُدخل في هذا الحكم لفظ ونبرة الصوت، وعلى خبراء اللغة والصوت أن يعلمونا إذا كان هناك علاقة بين أجزاء الفم والحنك والشكل الخارجي للوجه.

إنَّه يقوم بأعمال صغيرة عندما يدور الإبرة، يقيس وفقاً لزاوية المثلث الهندسيّ، إنَّه يفكُّ ويركّبُ الآلات العادية، ويعلم القدر الكافي من الموسيقا كي يعزفَ مقطوعةً موسيقيَّةً حين يُلقّن العلامات ومواضعها؛ إنَّه يقدر -بكثير من الدقة وأكثر منا- مدة الوقت عبر تعاقب الأفعال والأفكار، وإنَّ جمال الجلد وقساوته، ومزايا التطابق، وعذوبة النفس، ومفاتن الصوت واللفظ هي كلّها صفات يميزها بشكل تام عند الآخرين.

لقد تزوج كي يرى بعيون زوجته، وفي الماضي، كان يخطط للاتفاق مع أطرش كي يرى عبره وهذا الأطرش قد يسمع عنه بواسطة أذنيه، لم يُثر أيّ شيء استغرابي إلّا قدرته الخاصة على إتقان أشياء كثيرة، وحين عبرنا له عن استغرابنا، قال لنا: «ألاحظ يا سادتي أنّكم لستم عمياناً، أنتم تتفاجؤون من عملي، فلماذا لا يفاجئكم قولي؟»، هناك الكثير من الفلسفة والادعاء في هذا الجواب؛ إنَّ سهولة تعلم الكلام شيءٌ مذهل للغاية.

نحن لا نتوصلُ إلى ربط فكرة ذات معانٍ متعددة، ولا يمكن أن تمثل بأشياء ذات حساسيَّة، وهي إن استطعنا القول لا وجود لها إلَّا في التفاصيل الصغيرة والعميقة الخاصَّة بالتشابهات التي نلاحظها بين الأشياء غير الحساسة والأفكار التي تثيرها، وبالنتيجة علينا أن نعترفَ أنَّ المولود أعمى يتعلَّم الأشياء بشكل أصعب من غيره؛ لأنَّ عددَ الأشياء غير المحسوسة كبير جداً بالنسبة له، وإنَّ المساحة ضيقة أمامه، أكثر ممَّا هي الحال لدينا، كي يجري المقارنة ويحلل الجزئيات، على سبيل المثال: كيف يمكن أن

نُثبّت كلمة علم الفراسة في ذاكرته؟

إنَّه نوعٌ من القبول القائم على فهم أشياء حساسة جداً بالنسبة إلى الأعمى، ونحن المبصرون، نرى ونفتقد هذه الخاصية، سنشعر بالضيق الشديد عندما نحدد على وجه الدقة معنى علم الفراسة؛ إنَّها تتجسد عبر العيون ولا تستطيع حاسة اللمس إدراكها، إذاً ما فائدة العيون الميتة، العيون اليقظة، عيون العقل، ... بالنسبة إلى الأعمى؟

في الخلاصة، أستنتج أنَّ إحساساتنا وأعضاءنا تقدّمُ لنا خدمات كبيرة، لكن قد يختلف الأمر لو كنَّا نستخدم تلك الأحاسيس بشكل منفصل، وإن لم نستخدم حاستين في الوقت ذاته في المناسبات التي قد يكفينا استخدام حاسة واحدة.

إنَّ إضافةَ حاسة اللمس إلى الرؤية حين نرى جيداً يعني أنَّنا نتكأ على حصانين قويين ويقظين، ثم نسرج حصاناً آخراً في الإسطبل سوف يشد حباله من جهة في حين أنَّ الحصانين الآخرين يشدان حبالهما في الجهة المقابلة،

وباعتبار أنّني لم أشك أبداً بتأثير أعضائنا وإحساساتنا على الميتافيزيقيا الخاصّة بنا وعلى معنوياتنا، وإنَّ أفكارنا العلميَّة البحتة، إن استطعت أن أسميها كذلك، لا تتعلَّق بشدَّة بتنظيم جسدنا، وبدأت بسؤال أعمانا حول الأثام والفضائل.

استنتجت في البداية أنَّه كان يملك يقظةً كبيرةً بالنسبة إلى السرقة، وكانت تلك اليقظة تتولد لديه لسببين: من سهولة سرقته دون أن يدرك ذلك، وربَّما من سهولة كشفه حين كان يَسرِق أيضاً؛ لا يعني أنَّه لا يعرف جيداً أن يحمي نفسه من الاتجاه الذي يعرف أنَّنا نأتي منه أكثر منه، وأنَّه يجهل طريقة إخفاء السرقة بشكل جيد؛ إنَّه لا يظهر حالة كبيرة من الاحتشام، ورغم التدهور الذي يبرهن عليه مظهر ملابسه التي يرتديها؛ إنَّه يعلن بصراحة أنَّه لا يستطيع التنبؤ بسبب تغطيتنا جزءاً دون آخر، وما الغرابة في أن نفضلَ بعض الأجزاء على غيرها في حين أن توضّعها الجسديّ المختلف قد يتطلب منا أن ندعها حرة؟

مهما كنّا في قرنٍ حررنا فيه العقل الفلسفيّ من عدد كبير من الأفكار المسبقة، لا أعتقد أنّنا سنصل يوماً ما إلى مستوى رفض حجج الحشمة بشكل متقن كما يفعل أعمانا؛ إنّه لا يعدّ أبداً ديوجين فيلسوفاً، ومثل كلّ الاستدلالات الخارجيَّة التي توقظ فينا الشفقة وأفكار العذاب، فإنَّ العميان ليسوا معنيين إلَّا بالشكوى وبشكل عام أشك بعدم إنسانيتهم.

ما الفرق بالنسبة إلى الأعمى بين رجل يتبوّل ورجل يتدفق دمه دون أن يشتكي؟ حتى نحن ألا نتوقف عن شعور الشفقة عندما يُحدث أصغر الأشياء الأثرَ ذاته تماماً الذي يفعله شعور فقدان الرؤية عند العميان؟ إنَّ فضائلنا تتعلَّق بشكل كبير بطريقة إحساسنا وبدرجة شعورنا بالأشياء الخارجيَّة.

هكذا فإنِّي لا أشك بالناس، الذين لم يكن لديهم أيَّ مشكلة بقتل رجل على مسافة ما حيث لا يرونه بحجمه الكبير مثلما يرون طائر السنونو، أكثر من ذبح ثور بين

أيديهم خوفاً من العقاب، إذا كنَّا نشفق على حصانٍ يتألم، نسحق نملة دون أيّ قلق، أليس هذا هو المبدأ ذاته الذي نقرره؟ آه يا سيدتي، كم هناك فرقٌ بين أخلاق العميان وأخلاقنا! وإنَّ أخلاقَ شخص أصم تختلف أيضاً عن أخلاق الأعمى؛ إنَّ شخصاً قد يكون لديه إحساس أكثر منَّا، ربَّما يجد أخلاقنا غير كاملة، كي لا نقول أبداً شيئاً سيئاً.

لا تتناسبُ الميتافيزيقيا الخاصَّة بنا بشكل أفضل مع الميتافيزيقيا الخاصة بهم، بالنسبة لهم، كم من المبادئ ليست سوى أمور عبثيَّة بالنسبة لنا، والعكس صحيح! وفي هذا الشأن، يمكنني الخوض في تفصيل قد يشعرك بالتسلية بدون شك، لكن بعض الناس الذين يرون الجريمة في كل شيء، لن يتوانوا عن اتهامنا بأنَّنا غير متدينين، كما لو أنَّني مسؤول عن جعل العميان يرون الأشياء بطريقة مختلفة عن الطريقة التي يرونها فيها، سأكتفي بمراقبة شيء ما أعتقد أنَّه يناسب كلّ الناس، هو أنَّ ذلك التفكير الذي نستخلصه من روائع الطبيعة يبدو ضعيفاً بالنسبة إلى العميان.

إنَّ السهولةَ التي نخلق عبرها، إن استطعنا قول ذلك، أشياءً جديدة بواسطة مرآةٍ صغيرة، هي شيءٌ غير مفهوم تماماً بالنسبة لهم، كالنجوم التي حُكموا بعدم رؤيتها للأبد، وإنَّ هذه الكرة المنيرة التي تتقدم من الشرق إلى الغرب تدهشهم بشكل أقلّ من نارٍ موقد صغير اعتادوا أن يضرموه أو يخففوا ناره: كما لو أنَّهم يرون المادة بشيءٍ أكثر تجريداً منا، وهم لا يعتقدون أنَّها تفكر.

إذا كان هناك رجلٌ لم يرَ إلَّا خلال يومٍ أو يومين، ووجد نفسه بين معشر العميان، عليه أن يلزمَ الصمت أو أن يدعي أنَّه مجنون، قد يعلن لهم سراً جديداً كلّ يوم، وربَّما يكون هذا السر واحداً من أسرارهم، لكن العقول القويَّة لن تقبلَ تصديق هذا الأمر.

إنَّ المدافعين عن الدين لا يستطيعون الاستفادة من التشكيك المتعنت بالدين، وحتى العادل في بعض الأحيان، وإن كانت أركانه غير راسخة، وإذا حضّرتم أنفسكم ولو للحظة واحدة لقبول هذه الفرضيَّة فإنَّها

ستذكركم، من خلال بعض الصفات المقتبسة، تاريخ عذابات أولئك الأشخاص الذين عانوا من مواجهة الحقيقة في عصور الظلمات والتهور عبر كشفها للعميان المعاصرين لهم، وكان أشد الأعداء ضراوةً لهم أولئك الذين كانوا يبدون أبعد من غيرهم عن عواطفهم، تبعاً لحالتهم ولتربيتهم.

إنّني أدعُ جانباً إذاً أخلاق وميتافيزيقيا العميان وأتطرق لأشياء أقلّ أهميةً، لكنّها تتعلّق بشكل وثيق بهدف الملاحظات التي ندوّنها هنا من كلّ جهة منذ وصول هذا الشخص البروسي.

السؤال الأوّل: كيف يصوغ المولود أعمى أفكاره حول الأشكال؟

أعتقدُ أنَّ حركات جسده والوجود المتعاقب ليده في أماكن مختلفة والإحساس غير المنقطع لجسدٍ يمر بين أصابعه، تمنحه مفهوم الاتجاه، فإذا مرّر أصابعه على طول خيطٍ يتدلى فإنَّه يكوّن فكرة الخط المستقيم، وإذا

تبع انحناء حبلٍ مرخي، فإنَّه يكوّن فكرة الخط المنحني، وبصورة عامَّة عبر التجارب المتكررة للمس، سيمتلك ذاكرة من الإحساسات المكونة في مواضع متنوعة، وهو سيدُ تشكيل تلك الأحاسيس أو النقاط وتكوين الأشكال منها، وبالنسبة إلى الأعمى إنَّ الخط المستقيم ليس أبداً هندسياً، وهو ليس شيئاً آخر سوى ذاكرة من مجموعة أحاسيس اللمس المتوضّعة في اتجاه خيط مشدود، أمَّا الخط المنحني فهو مجموعة من ذاكرة أحاسيس اللمس التي يشعر بها عند سطح صلب، مقعر أو محدب، وإنَّ الدراسةَ ترمّم لدى المهندس مفهوم هذه الخطوط عبر الخصوصيَّات التي يكتشفها فيها، لكن سواء كان المرءُ مهندساً أم لا، فإنَّ المولود أعمى يعيد كلَّ شيء إلى أطراف أصابعه.

نحن نجمع النقاط الملونة، أمَّا هو فلا يجمع إلَّا النقاط المحسوسة، أو -إن تكلمنا بدقة أكبر- أحاسيس اللمس التي يتذكرها، ولا يدور أيّ شيء في رأسه بالطريقة ذاتها التي تدور في رأسنا، إنَّه لا يتخيل أيّ شيء لأنَّه، لكي

نتخيل، يجب أن نلوّن الخلفيَّة وأن ننزعَ عنها نقاطاً وذلك بأن نضعَ فوقها لوناً مختلفاً عن لون الخلفيَّة، وإنَّ إعادةَ اللون ذاته الموجود في الخلفيَّة إلى تلك النقاط في هذه اللحظة تختلط جميعها لديه ويتلاشى الشكل.

على الأقلّ فإنَّ الأشياء تتنفذُ بهذه الطريقة في مخيلته وأظن أنَّ الآخرين لا يتخيلون طريقة مغايرة عني، إذاً حين أتصور برأسي خطاً مستقيماً بخلاف ما يبدو عليه في خصائصه، أبدأ بنشره داخل لوحة بيضاء، وأنزع مجموعة من النقاط السوداء المتوزعة في الاتجاه ذاته، وكلَّما كانت ألوان الخلفيَّة والنقاط حادة تصورت هذه النقاط بشكل منفصل، ولا يتعبني شكل اللون المجاور والملتصق بلون الخلفيَّة، إلا إذا اعتبرت في خيالي أنَّه غريبٌ عني وموجودٌ على اللوحة.

أترين يا سيدتي يمكننا إصدار قوانين كي نتخيل بسهولة عدة أشياء ملونة بطريقة متنوعة، ولن يستخدم المولود أعمى هذه القوانين فهو لا يستطيع أن يلوّن، وبالنتيجة

لن يستطيعَ التخيل كما عرفنا ذلك وليس لديه ذاكرة إلَّا للأحاسيس الملتقطة عبر اللمس التي يجمعها عبر نقاط مختلفة في أماكن أو مسافات ويتصور منها أشكالاً.

من المناسب ألَّا نفكر أبداً في الخيال بعيداً عن التلوين إلَّا إذا جعلونا نلمس في الظلمات كراتٍ صغيرة لا نعرف مادتها ولا لونها، سنظن سريعاً أنّها بيضاء أو سوداء أو ذات لون مختلف، وإن لم نستطع أن نسبغ عليها أيّ لون، فلن يكون لدينا إلَّا ذاكرة الأحاسيس الصغيرة التي تتشكل من أطراف الأصابع تماماً كما هي حال المولود أعمى وستكون عبارة عن أجساد دائريَّة صغيرة وسيكون أثرها كأثر الأجساد الدائريَّة الصغيرة.

إذا كانت هذه الذاكرة سريعة التلاشي فينا، وإن لم يكن لدينا أيّ طريقة لندرك فيها كيف يثبت المولود أعمى ذاكرته، أي يثبت ويجمع عبر حاسة اللمس، فإنَّ هناك مجموعةً من العادات التي اكتسبناها عبر عيوننا، أي إنَّنا ننفذ كلَّ شيء في خيالنا عبر الألوان، مع ذلك

حصل معي شخصياً شيءٌ يشبه اضطرابات الولَه العنيفة وشعرت برجفة في يدي وأحسست بأجسادٍ لمستها منذ زمن طويل وتيقظت بحيويَّة أيضاً كما لو كانت موجودة على ملمس يديّ، وقد لاحظت بشكل منفرد أنَّ حدودَ الإحساسِ تلتقي بدقة مع حدود الأجساد الغائبة، ومع أنَّ الإحساس لا يتجزأ بحد ذاته، إن جاز التعبير، فإنَّه يشغل مكاناً منتشراً يكون للمولود أعمى فيه القدرة على الإضافة أو الحسم عبر الفكرة عبر تضخيم أو تقليل حجم الجزء الملموس، وعبر هذه الطريقة سيكوّن نقاطاً، سطوحاً، أجساداً صلبة، حتى أنَّه سيكون لديه جسمٌ قويّ مثل الكرة الأرضيَّة إن لم يفترض أنَّ طرف أصبعه الغليظ كأنَّه كرة ومشغول بالإحساس الطولي أو الممتد نحو العمق. لا أعرف أيّ شيء يُظهر بشكل جيد حقيقة الإحساس الداخليّ إلّا تلك الموهبة الضعيفة فينا، لكنَّها قويَّة لدى المولودين عمياناً، أي الشعور أو تذكر ملامس الأجساد حتى لو كانت غائبة وغير موجودة بالنسبة لهم.

لا نستطيع أن نتلو على مسامع المولود أعمى كيف أنَّ

الخيالَ يرسمُ لنا الأشياء الغائبة كما لو كانت حاضرة، لكنَّنا نستطيع وبشكل جيد التعرف، داخل ذواتنا، على قدرتنا بالإحساس بطرف إصبع الجسم الذي لم يعد موجوداً، تماماً كما هي الحال لدى المولود أعمى.

بهذا الخصوص، قوموا بضم السبابة إلى الخنصر، أغلقوا عيونكم، باعدوا بين أصابعكم ولاحظوا، بشكل مباشر بعد ذلك الفصل، ماذا يحصل داخلكم -خلال عمليَّة الضم القاسية- إذا كانت روحكم تتواجد في رؤوسكم أكثر من وجودها في أصابعكم، وإذا كان ذلك الضغط لا يعطيكم مفهوم السطح عبر الفضاء الذي يشغله الإحساس.

نحن لا نميز وجود الكائنات خارج أنفسنا ولا تجسيدها داخل خيالنا إلَّا عبر قوة وضعف الإحساس، وبشكل مماثل، إنَّ المولود أعمى لا يميز إحساس الوجود الحقيقيّ لشيءٍ ما بأطراف أصابعه إلَّا عبر قوَّة وضعف الإحساس ذاته.

إذا كان الفيلسوف المولود أعمىً وأطرشاً يصيغُ[1] مفهوم الانسان بشكلٍ تقليدي، على طريقة ديكارت، فإنّني أؤكد لك يا سيدتي أنّه سيضع الروح عند طرف الأصابع، ومن هنا ستأتي إحساساته الأساسيَّة وكلّ معارفه، من سيخبره أنَّ رأسه هي مقر أفكاره؟

إذا كانت أعمال التخيل تقضي على أفكارنا، معنى ذلك أنَّ الجهد الذي نقوم به للتخيل يشبه إلى حدّ ما الجهد الذي نقوم به كي نتصور الأشياء الصغيرة جداً، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى المولود أعمىً وأطرشاً: إنَّ الإحساسات التي تكوّنت لديه عبر اللمس ستكون، إن جاز التعبير، قالباً لكلّ أفكاره، ولن يدهشني ذلك إلّا بعد تأملٍ طويل، لقد تعبت أطرافه كما تتعب رؤوسنا، ولن

(1) وجب التنويه أنَّ الفعل الفرنسي في النص الأصلي (faire) معناه صنع، لكن ولضرورة فهم سياق النص، لا يمكن ترجمة هذا الفعل بحرفيته، بل علينا فهم النص وغاية الفيلسوف ديدرو منه، وعليه، ارتأيت أن أترجمَ فعل «صنع» بعفل «كوّن فكرة»، لأنَّ الفيلسوف لا يصنع الإنسان، بل يكوّن فكرة عن الانسان، وهذه غاية ديدوا من هذه الجملة. (المترجم)

أخشى أنَّ فيلسوفاً سيعترض على فكرته أنَّ الأعصاب هي سبب أحاسيسنا، وأنَّها تنطلق جميعها من المخ، وحين سيبرهن على هاتين الفرضيتين، فهما ليستا كذلك حتى الآن وخصوصاً الأولى، قد يكتفي بجعل أحدهم يشرح له كلّ ما حلم به الفيزيائيون حول هذا الموضوع كي يستمرّ إحساسه.

لكن إذا كان خيال الأعمى ليس سوى قدرته على التذكر وتجميع إحساساته من نقاط ملموسة في حين أنَّ خيالَ الرجلِ المبصر يكمن في قدرته على تذكر وتجميع النقاط المرئيَّة أو الملونة، ينتج عن ذلك أنَّ المولود أعمى يدرك الأشياء بطريقة أكثر تجريداً منَّا، وفي المسائل المتعلقة بالتكهّن البحت ربَّما درجة الخطأ أقلّ فيها لأنَّ التجريد لا يكمن إلَّا في تفريق صفات الأجساد المحسوسة -عبر الأفكار- الواحدة عن الأخرى أو عن الجسد الذي يشكل مادةً لها، ويولد الخطأ من ذلك الفصل غير الجيد بين الأسئلة الميتافيزيقيَّة والخطأ أيضاً في المسائل الرياضيَّة.

هناك وسيلة شبه مؤكدة للخطأ في الميتافيزيقيا هي ألّا نبسّط كثيراً الأشياء التي ننشغل بها، وهناك سرٌّ أساسيّ لا بدَّ منه كي تفضي الميتافيزيقيا الرياضيَّة إلى نتائج خاطئة، وهو أن نفترَض احتماليَّة تركيبها بأقلّ ممَّا هي عليه.

قلّة من الرجال يستطيعون القيام بنوع معين من التجريد، ويبدو أنَّه خاصٌّ بالأشخاص الأذكياء جداً، أي التجريد الذي يُردُّ فيه كلّ شيء إلى الوحدات الرقميَّة[1]، وعلينا أن نُجمع أنَّ نتائج تلك الهندسة قد تكون صحيحة جداً وأنَّ صيغها عامَّة جداً، لأنَّه لا يوجد أيّ شيء، سواءً في الطبيعة أو في الممكن، يجعل هذه الوحدات البسيطة غير قادرة على تجسيد خطوط، سطوح، أجساد صلبة، أفكار، أحاسيس، ... ربَّما نستطيع القول، -من باب الصدفة- وهذا هو أساس نظريَّة فيثاغورث- أنَّه قد فشل في إنجاز

(1) باستخدامه كلمة عبارة «الوحدات الرقميَّة» (Unité numé-rique)، يثبت ديدرو أنَّه من أوائل الفلاسفة الذين يستخدمون مصطلح «الرقمي» وحتى قبل الثورة المعلوماتيَّة التي عرفت في نهاية القرن العشرين. (المترجم)

مشروعه لأنَّ طريقة الفلسفة تلك أعلى من مستوانا، وأقرب من الكائن الأعلى، الذي، ووفقاً لعبارة المهندس الإنكليزيّ[1]، يهندس الكون باستمرار.

تبدو الوحدة التامة والبسيطة كرمز واسع المعنى وعام جداً، وتعيدنا حواسنا إلى علامات أكثر تشابهاً مقارنةً بحجم أذهاننا وشكل أعضائنا، ولقد تأكدنا أنَّ هذه العلامات يمكن أن تكون مشتركة فيما بيننا، وأنَّها خدمتنا، إن صح القول، كمخزون لتبادل أفكارنا المشتركة.

لقد وضعنا بعضاً من هذه الأفكار لعيوننا، أي الملامح، وللأذن الأصوات ذات الحركات، لكنَّنا لم نحدّد أيّاً منها للمس، على الرغم من وجود طريقة خاصة للتحدث في هذا المعنى والحصول على إجابات منه، وبغياب هذه اللغة، ينقطع التواصل كلياً بيننا وبين أولئك الذين يولدون صماً، عمياناً وبكماً، إنَّهم يكبرون لكنَّهم يبقون في حالة من البلاهة، ربَّما إنَّهم يكتسبون أفكاراً عندما نلقي

(1) رابسون (Rapson).

على أسماعهم، منذ الطفولة بطريقة حازمة وموحدة، كلمةً واحدة، وإذا جعلناهم يخطّون بأيديهم الأحرف ذاتها التي تتبعناها على الورق، وبقي المعنى نفسه مرتبطاً بها بشكل دائم[1].

سيدتي: ألا تبدو هذه اللغة مناسبة كأيّ لغة أخرى؟ أليست كلّها مخترعة؟ وهل تملكين الجرأة بأن تؤكدي لنا أنّه لم يُلقَ على مسامعك أبداً لغةٌ كهذه؟ ومن خلال الصفات العادية في الكتابة، إذا وجدنا أنَّ التعبيرَ بطيءٌ جداً بالنسبة لهذا المعنى، فلن يتعلَّقَ الأمر بتثبيتها وتحويلها إلى قواعد نحويَّة وقواميس فقط.

إنَّ للمعرفة ثلاثة أبواب للولوج إلى أرواحنا، وهناك نقيم حواجز بيننا وبينها بسبب نقص الإشارات، إذا أهملنا الاثنين الآخرين، سنصبح تماماً كالحيوانات، وبما أنّنا لا نستطيع إلا الضغط لكي نتمكن من تلبية حاسة اللمس، فما علينا إلَّا الصراخ عندما نوجه كلامنا للأذن.

(1) الأب دو لابي لم يكن قد تحدث عن ذلك أبداً.

سيدتي، يجب أن نفقد حاسةً ما كي ندرك خصائص الرموز المتبقية للحواس الأخرى، وإنَّ الأشخاص الذين يعانون من شقاء الصمم، العمى والبكم، أو الذين فقدوا هذه الحواس الثلاثة بسبب حادثٍ ما، سيكونون في غاية السعادة إذا كان هناك «لسانٌ»[1] واضحٌ ودقيق لحاسة اللمس.

إنَّ عمليَّة استخدام الرموز المخترعة سلفاً تبدو أقصر بكثير من مسألة اختراعها، وإنَّنا نشعر بالحرج إن اضطررنا لذلك الأمر، بالنسبة إلى سوندرسون (Saunderson)[2]، ما الفائدة من إيجاد معادلة حساب واضحة ومعدّة سلفاً في سن الخامسة، بدلاً من تخيلها

(1) استخدما كلمة «لسان» كما وردت في النص الفرنسي (langue) ووضعناها ضمن قوسين للإشارة أن معناها مجازي أي إنَّ ديدرو يعني بها أداة ما وليس لسان بالمعنى الخاص للكلمة. (المترجم).

(2) نيكولا سوندرسون، المولود عام 1682 في تارلستون (Tharlston) في منطقة يوركشير (Yorkshire)، والمتوفي في 19 نيسان عام 1739 في كامبريدج (Cambridge). (المترجم).

في سن الخامسة والعشرين! وهذا ال «سوندرسون»، يا سيدتي، هو أعمى آخر خارج عن الموضوع ولن أحدثك عنه، يقولون العجائب عنه، وإنَّ تقدمه في الآداب ومهاراته في العلوم الرياضيَّة تجعلنا لا نصدق هذا الأمر.

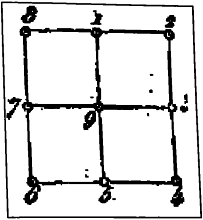
كانت الآلة ذاتها تخدمه في الحسابات الجبريَّة ولوصف الأشكال المنحنيَّة، لن تغضبي إن شرحناها لك، شريطة أن تكونين قادرةً على سماعها، وسترين أنَّ هذا الشرح لا يفترض أي معرفة لا تملكينها، وستفيدك بشكل كبير إن لم ترغبين أبداً القيام بحسابات طويلة عبر اللمس.

تخيلي مربعاً، كما ترينه في الشكلين 1 و2، وهو مقسّم عبر الخطوط العموديَّة على الجانبين إلى أربعة أجزاء متساوية، بحيث يعطيك النقاط التسع 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، وافرضي أنَّ هذا المربع مثقوب بتسعة ثقوب قادرة على استقبال دبابيس من نوعين، متساوية الطول والحجم،

لكن الدبابيس ذات الرؤوس أكبر قليلاً من الرؤوس الأخرى.

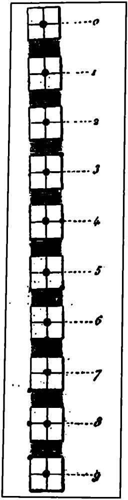
تم تمييز الصفر بواسطة دبوس ذي رأس كبير، يوضع في وسط مربع صغير، دون وجود دبابيس أخرى على الجانبين، ومُثِّلَ الرقم 1 بدبوس ذي رأس صغير يوضع في وسط المربع بدون وجود دبابيس أخرى على الجانبين، ويُمثّل الرقم 2 بواسطة دبوس كبير الرأس يوضع في وسط المربع، وبواسطة دبوس صغير الرأس يوضع على جانب واحد عند النقطة 1.

يُمثّل الرقم 3 دبوساً ذا رأس كبير يوضع في وسط المربع، ودبوساً ذا رأس صغير يوضع على جانب واحد عند النقطة 2، ويُمثّل الرقم 4 دبوساً ذا رأس كبير يوضع في وسط المربع ودبوساً ذا رأس صغير يوضع عند أحد جوانب النقطة 3، ويُمثّل الرقم 5 دبوساً ذا رأس كبير، يوضع في وسط المربع، ودبوساً ذا رأس صغير يوضع على أحد جانبي النقطة 4.



الشكل 1

يُمثّل الرقم 6 دبوساً كبير الرأس في وسط المربع ودبوساً صغير الرأس عند أحد جانبي النقطة 5، ويمثل الرقم 7 بدبوس ذي رأس كبير يوضع في مركز المربع ودبوس ذي رأس صغير يوضع على جانب واحد عند النقطة 6، ويُمثّل الرقم 8 بدبوس ذي رأس كبير يوضع في وسط المربع، ودبوس برأس صغير يوضع على أحد جوانب النقطة 7، ويُمثّل الرقم 9 بدبوس كبير الرأس، موضوع في وسط المربع وبدبوس ذي رأس صغير يوضع على جانب واحد من المربع عند النقطة 8.



الشكل 2

لدينا عشرة تعبيرات مختلفة اللمس، تتوافق كلّ واحدة منها مع إحدى الصفات الحسابيّة العشر لدينا.

تخيلي الآن طاولة كبيرة كما تشائين، مقسمة إلى مربعات صغيرة مرتبة أفقياً، ومفصولة عن بعضها البعض بالمسافة ذاتها، كما ترين في الشكل 3، وسيكون لديك عندئذٍ آلة سوندرسون (Saunderson).

يمكنك أن تتصوري بسهولة أنَّه لا يوجد رقم يصعب كتابته في هذا الجدول، وبذلك لا توجد عمليَّة حسابيَّة لا يمكن إجراؤها فيه.

على سبيل المثال: لنقترح جمع الأرقم التسعة الآتية:

1 2 3 4 5

2 3 4 5 6

3 4 5 6 7

4 5 6 7 8

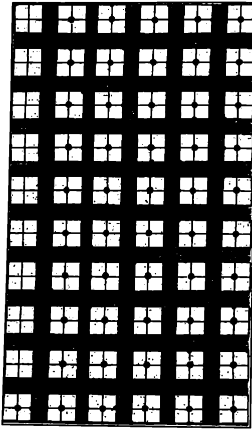
5 6 7 8 9

6 7 8 9 0

7 8 9 0 1

8 9 0 1 2

9 0 1 2 3



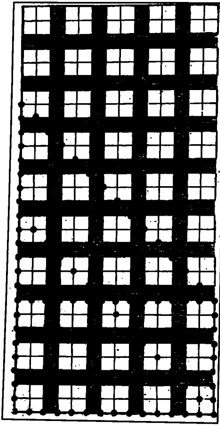
الشكل 3

أكتبها على الجدول شريطةَ أن تُتلى عليّ: الرقم الأوَّل، من يسار الرقم الأوَّل، على المربع الأوَّل وعلى يسار الخط الأوَّل، الرقم الثاني، من يسار الرقم الأوَّل على المربع الثاني وعلى يسار الخط ذاته، وهكذا.

أضع الرقم الثاني على يسار خط المربعات، الوحدات تحت الوحدات، العشرات تحت العشرات، أضع الرقم الثالث على خط المربعات الثالث، وهكذا، كما ترين في الشكل 3، ثمّ حين أتلمّس بأصابعي كلّ خط عموديّ من الأسفل للأعلى، وابتداءً من الخط الواقع على يساري، أجمع الأرقام التي توجد فيه وأكتب فائض العشرات في أسفل ذلك العمود.

أنتقل إلى العمود الثاني وأنا أتقدم نحو اليسار وأقوم بنفس الطريقة على هذا العمود، وأنتقل من هذا العمود إلى العمود الثالث وهكذا أنهي حسابي.

أترين كيف كان الجدول ذاته يخدمه بإثبات خصائص الأشكال المستقيمة، لنفترض أنّه توجّب عليه البرهنة على تساوي سطح شبه المنحرفات، التي لديها القاعدة ذاتها والارتفاع ذاته، كان سيضع دبابيسه كما ترين في الشكل 4.



الشكل 4

كان يوصل الأسماء بنقاط الزاوية وينهي عرضها عبر أصابعه، ولنفترض أنَّ سوندرسون (Saunderson) لم يستخدم إلَّا دبابيساً ذات رؤوس كبيرة، ليشير إلى حدود أشكاله، كان بإمكانه أن يضع حولها دبابيساً ذات رؤوس

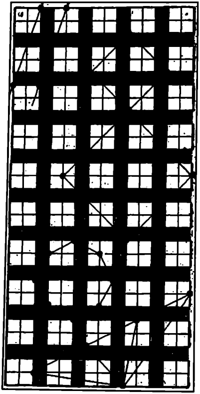
صغيرة عبر تسع طرق مختلفة، وهكذا لن يكون محرجاً أبداً إلَّا في الحالات التي يكون فيها رقم نقاط الزاوية كبيراً، وسيضطر لتسميتها خلال عرضها وبذلك سيكون مجبراً لاستخدام الأحرف الأبجديَّة.

لم يعلموا أبداً كيف كان يستخدمها، نعرف فقط أنَّه كان يتفحص جدوله عبر مهارة أصابعه المذهلة، وكان ينجح بالقيام بالحسابات الطويلة، ويستطيع إيقافها ثم الاعتراف بحدوث بعض الأخطاء، كما كان يتفحصها بسهولة، ولم يكن يستغرق هذا العمل وقتاً طويلاً كما يمكننا أن نتخيل، وذلك بفضل الأريحيَّة التي كان يحضر بها جدوله.

كان ذلك التحضير يقوم على وضع الدبابيس ذات الرؤوس الكبيرة وسط كلّ المربّعات، وبعد أن ينتهي من ذلك، لم يكن يتبقّى له سوى أن يحدّد قيمة الأرقام عبر الدبابيس ذات الرؤوس الصغيرة، إلّا في الحالات التي كان عليه أن يكتب فيها وحدةً ما، وحينئذٍ كان يضع في مركز المربّع دبّوساً ذو رأسٍ صغير مكان الدبّوس ذو

الرأس الكبير الذي كان يشغله، وأحياناً بدلاً من تشكيل خط كامل من دبابيسه، كان يكتفي بوضع كلّ النقاط ذات الزوايا أو في التقاطع، وكان يثبّت حولها خيوطاً من الحرير التي كانت تنهي تشكيل حدود أشكاله.

انظري إلى الشكل 5.



الشكل 5

لقد ترك بعض الآلات الأخرى التي كانت تسهّل له دراسة الهندسة: نحن نجهل استخدامه الحقيقيّ لها، ربّما يكون هناك الكثير من المهارة لإيجاد حل لإحدى المعادلات الحسابيَّة الكاملة، فليحاولْ مهندسٌ ما أن يعلّمنا ويخبرنا بماذا كانت تخدمه أربع قطع قاسية من الخشب ذات الشكل المنحرف والمستطيل، طول كلّ واحدة منها إحدى عشرة بوصة وعرضها خمس بوصات ونصف، وسماكة كلّ واحدة منها نصف بوصة، وإنّ المساحتَين المتقابلتَين كانتا مقسّمتَين إلى مربّعات صغيرة ومتساوية لجدول المربعات الذي وصفتُه للتوّ مع اختلاف أنّها كانت مثقوبة، وفي بعض الأماكن كانت الدبابيس مغروزة فيها حتّى رأسها.

كانت كلّ مساحة تمثّل تسعة جداول رياضيَّة فيها عشرة أرقام، وكلّ واحد من هذه الأرقام العشرة كان مقسّماً لخمسة أعداد.

يمثّل الشكل (6) إحدى تلك الجداول الصغيرة، وها هي الأعداد التي كانت تحويها:

9 4 0 8 4

2 4 1 8 6

4 1 7 9 2

5 4 2 8 4

6 3 9 6 8

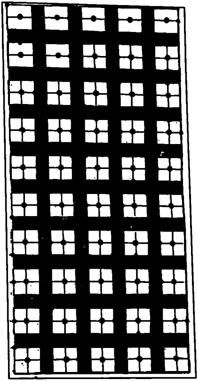
7 1 8 8 0

7 8 5 6 8

8 4 3 5 8

8 9 4 6 4

9 4 0 3 0



الشكل 6

لقد ألّف كتاباً فريداً من نوعه: «عناصر الجبر»[1]، لا نلاحظ أنّه كان ضريراً إلّا حين يتعلّق الموضوع ببعض

(1) طبع في لندنغام 1740، بعد عام من وفاة سوندرسون، على حساب جامعة كامبريدج. عام 1756، ترجمها دو جونكور (De Joncourt)، طبعت الترجمة في أمستردام، الجزء الثاني).

الرسومات المخصصة للرجل المبصر، ويعود الفضل إليه في تقسيم المكعّب إلى ستّة أهرام متساوية تتوضع قممها في مركز المكعّب، حيث تمثّل كلّ واجهة من واجهاته قاعدة ذلك الهرم، نحن نستفيد منها كي نكتشف بطريقة سهلة جدّاً أنّ كلّ هرم هو جزء من موشور ذو القاعدة ذاتها والعلوّ ذاته.

قادته رغبته لدراسة الرياضيات رغم ضعف إمكانيّاته، متّبعاً نصائح أصدقائه، وقد عزم أن يقيمَ دروساً عامّة فيها، ولم يشكّوا أبداً أنّه سينجح ويتجاوز آماله، وذلك بفضل قدرته على إسماع رأيه بسهولة عجيبة.

في الواقع، كان سوندرسون (Saunderson) يتكّلم مع تلاميذه كما لو كانوا محرومين من النظر، ولكنّ الأعمى الذي يعبّر بوضوح للعميان عليه أن ينالَ إعجاب الكثير من الناس المبصرين، فهم مزوّدون بتلسكوب إضافي[1].

يقول أولئك الذين كتبوا سيرة حياته أنَّ كلامه كان

(1) يقصد العيون. (المترجم)

يفيض بالعبارات السعيدة، وهذا ممكن جدّاً، ولكن ماذا تفهمين من العبارات السعيدة؟ ربّما تسألينني هذا السؤال، سأجيبكِ يا سيّدتي أنّها تشمل تلك العبارات الخاصّة بالحاسة، كاللمس على سبيل المثال، وهي مجازية وبنفس الوقت ترتبط بحاسة أخرى، كالعيون، فينتج عن ذلك ضوء مضاعف بالنسبة إلى الشخص الذي نتحدّث معه، أي ضوء العبارة الحقيقيّ والواضح والضوء القادم من العبارة المجازيّة.

ومن الواضح أن سوندرسون (Saunderson) -في هذه المناسبات- وبالرغم من ذكائه وذهنه المتقد لم يكن يسمع نفسه إلّا قليلاً، لأنّه كان يدرك أنّ نصف أفكاره مرتبطة بالتعابير التي كان يستخدمها، لكن مَن ذاك الشخص الذي لم يمرّ بهذه الحالة من زمنٍ لآخر؟ وهذه الحادثة مشتركة بين الحمقى الذين يتفوهون ببعض المزاحات الرائعة، والأشخاص الذين يتميّزون بذكاء شديد أيضاً والذين يغفلون عن حماقة ما دون أن يتنبّه لها الحمقى والأذكياء واحدهم تلو الآخر.

لاحظتُ أنَّ مقولةَ الكلمات كانت تولّد أيضاً الأثر ذاته على الأجانب الذين لم يعتادوا على اللغة، وهم مجبرون على قول كلّ شيء بتعابير قليلة، وهذا يجبرهم على قول البعض منها بطريقة سعيدة جدّاً.

لكن كلّ لغة بشكل عام هي فقيرة بالكلمات الخاصّة بالكتّاب ذوي الخيال المتّقد والحيّ، وفي نفس الحالة ليسوا إلّا أجانب يتمتعون بذكاء خارق: إنَّ الحالات التي يخترعونها والفروقات الحسّاسة التي كانوا يدركونها في الملامح وبسذاجة الرسومات التي كانوا يقومون بها كانت تبعدهم في كلّ لحظة عن طرق الكلام العادية، وتجعلهم يتبنّون استخدام جمل تثير الإعجاب في كلّ المرات التي لم تكن فيها هذه الجمل ذات قيمة ولا مظلمة، ونتسامح معهم بصعوبة -نسبيًّة- غالباً، وحسب الطريقة التي نمتلك فيها حسّاً ما ومعرفة أقلّ للغة.

لهذا السبب فإنّ السيّد M. de M.[1] من بين كلّ الكتّاب الفرنسيين هو الذي يعجب العدد الأكبر من الإنكليز، وإنّ الكاتب تاسيت (Tacite) من بين كلّ الكتّاب اللاتينيين الذي يحترمه ويقدّره المفكّرون بشكلٍ كبير؛ إنّنا لا ندرك درجات اللغة، وحدها حقيقة التعابير هي مَن تدهشنا.

كان سوندرسون (Saunderson) يدرّس الرياضيات في جامعة كامبريدج بنجاح منقطع النظير، كان يعطي دروساً عن النظر ويحاضر بخطابات عن الطبيعة وعن الضوء والألوان، عن شرح نظريَّة الرؤية ومعالجة انعكاسات الزجاج وظاهرة قوس قزح وعدّة طرق أخرى متعلّقة بالنظر وجهازه.

(1) نيجون (Naigeon) ومن بعده الناشر عام 1818، وضعوا بدلاً من الأحرف الأولى M. de M كما وجدت في النسخة الأصلية. السيد مونتسكيو (M. de Montesquieu). وهذا خطأ كبير، وقد أشار ديدرو بنفسه في جدول الحساب عام 1749 وعام 1751 إلى السيد ماريفو (M. de Marivaux)، ممّا أحدث خطأً لدى الناشرين السابقين الذين لم يعاينوا هذا الجدول وحيث إنّ كتاب «روح القانون» قد صدر عام 1748.

ستفقد هذه الأحداث الكثير من روعتها إذا عددتِ يا سيدتي أنّ هناك ثلاثة أشياء نميّزها في كلّ مسألة مشتركة بين الجسد والهندسة: الظاهرة الواجب شرحها، فرضيَّات المهندس والحساب الذي ينتج عنها.

من البدهي إذاً -ومهما كانت درجة تدخل الأعمى- أن تكون ظواهر الضوء والألوان مجهولة بالنسبة له؛ إنّه سيسمع الفرضيَّات؛ لأنّها متعلّقة جميعها بأسباب محسوسة، لكنّه لن يدرك أبداً السبب الذي من أجله فضّلها المهندس على غيرها: فقد توجّب عليه أن يفكّر بمقارنة الفرضيَّات ذاتها مع الظواهر.

إذاً يتلقى الأعمى الفرضيَّات كما قدّمت له، فيبدو له شعاع الضوء كخيط مرن ونحيل، أو على أنّه عبارة عن مجموعة من الأجساد الصغيرة التي تصطدم بأعيننا بسرعة مذهلة، وأنّه يقوم بحساباته نتيجةً لذلك، وحينها يتحقق المرور من الحالة الجسديَّة إلى الهندسيَّة، فتصبح المسألة رياضيّة بحتة.

لكن ماذا نفكّر حول نتائج الحساب؟

أحياناً يصعب علينا الحصول عليها، وإنّ الفيزيائيَّ قد يكون سعيداً جداً بتخيّل الفرضيَّات الأكثر مطابقةً مع الطبيعة، سيكون ذلك أمراً عبثياً إن لم يعرف أن يظهر قيمتها عبر الهندسة، وإنّ كبار الفيزيائيين من أمثال غاليليه (Galilée)، ديكارت (Descartes)، نيوتن (Newton)، كانوا مهندسين كباراً أيضاً.

إنّ هذه النتائج شبه مؤكّدة، وذلك تبعاً للفرضيَّات التي انطلقنا منها وتبعاً لدرجة تعقيدها، حين يستند الحساب على فرضيَّة سهلة، عندئذٍ تكتسب النتائج قوّة العروض الهندسيَّة، حين يكون لدينا عدد كبير من الفرضيَّات، وإنَّ شكلَ كلِّ فرضيَّة يقلّ تبعاً لعدد تلك الفرضيَّات، لكنَّه يزداد من طرف آخر عبر قابليَّة حدوثها، وإنَّ الكثير من الفرضيَّات الخاطئة يمكن أن تُصحح تماماً الواحدة تلو الأخرى إلى أن نحصلَ على نتيجة مؤكدة بفعل الظواهر الناتجة عنها.

في هذه الحالة سيكون لدينا عمليَّة حساب قد تكون نتائجها صحيحة، مع أنّ المحصّلات الجزئيَّة للأرقام المضافة قد تكون جُمعت بشكل خاطئ، لا يمكننا أن نزعمَ أنّ عمليَّة مشابهة قد تكون ممكنة، لكنّكِ تدركين في الوقت ذاته أنّها قد تكون نادرة جدّاً، كلما أضفنا أرقاماً، كان هناك وضوح، وإن أخطأنا في حساب كلّ رقم أيضاً فإنّ هذا الوضوح سيكون أقلّ إذا كانت نتيجة العمليَّة صحيحة.

إذاً هناك عدد من الفرضيَّات، مثل الحقيقة المؤكّدة التي ستنتج عنها، قد تكون هي الأصغر إن كانت ممكنة، إذا جمعتُ حروف A, B, C وجعلتها مشابهة للرقم 50، هل سأستنتج أنّ الرقم 50 هو، في الواقع، الكمية الناتجة عن هذه الظاهرة؟ وإنّ الفرضيات التي تمثّلها الأحرف A, B, C هي حقيقيَّة؟

الأمر خاطئ تماماً، لأنّ هناك عدد غير منتهي من الطرق كي ننزع من كلّ حرف شيئاً ما وأن نضيفه إلى الحرفين الآخرين، وبناءً على ذلك سأجد دائماً الرقم 50 كنتيجة

لهذه العمليَّة، لكن حالة الفرضيَّات الثلاث المكوّنة قد تكون إحدى الحالات غير المقبولة، وهناك ميزة من مزايا الحساب علينا ألّا نغفلها، هي أنّنا نتفادى الفرضيَّات الخاطئة عبر التناقض الموجود بين النتيجة والظاهرة.

إذا اقترح فيزيائيّ ما إيجاد الخط المنحني الذي يتبعه شعاع الشمس عندما يخترق الفضاء، فإنّه سيضطر لإعادة حساباته حول كثافة طبقات الهواء، وحول قانون الجاذبيَّة، طبيعة وشكل المجسّمات المضيئة، وربّما حول العناصر التي يجب ألّا ندخلها في هذا الحساب سواء لأنّه يهملها بشكل إرادي أو لأنَّه يجهلها، سوف يحدّد الخط المنحني للشعاع ويتحقق إن كان مختلفاً عن طبيعة نتيجة حسابه، أو إذا كانت فرضيَّاته ناقصة أو خاطئة.

هل ينطبق الشعاع على الخط المنحني المحدّد؟ إنّه ينتج عن شيئين: من الطبيعة أو من تقويم الفرضيَّات، أو أنّها صحيحة، لكن ماذا نختار من الاثنتين؟ إنّه يجهل ذلك الأمر: مع ذلك فإنّ هذا الشيء هو الحقيقة الوحيدة التي

يمكن أن يصل إليها.

قمتُ بتصفّح كتاب «عناصر الجبر» لسوندرسون (Saunderson)، آملاً أن أجد فيه ما رغبتُ بتعلّمه من هؤلاء الأشخاص الذين أحبّوه، والذين علّمونا بعض خصائص حياته، لكن فضولي قد خدعني وأدركتُ أنّ هذه العناصر الهندسيَّة المكتوبة وفقاً لطريقته كان من الممكن أن تكون عملاً أكثر تفرّداً بحدّ ذاته وأكثر أهمية لنا.

وجدنا فيه تعاريف النقطة، السطر، السطح، الجسم الصلب، الزاوية، تقاطعات الخطوط والمخططات، ولا أشكّ أبداً أنّه قد استخدم مبادئ الميتافيزيقيا المجرّدة جداً والمشابهة لميتافيزيقيا الأشخاص المثاليين.

ندعو «المثاليين» أولئك الفلاسفة الذين لا يدركون إلّا حقيقة وجودهم وإحساساتهم التي تتعاقب الواحدة تلو الأخرى ضمن ذواتهم، والذين لا يقبلون أيّ شيء آخر: إنّ هذا النظام غريب وغير قادر على أن يُولد - كما يبدو

لي- إلا لدى العميان؛ إنَّه عارٌ على العقل الإنسانيّ وعلى الفلسفة وهو من أصعب الأنظمة التي يمكن أن نكافحها وهو أكثرها عبثيةً أيضاً، وقد شرح الدكتور بيركلي (Berekeley)، كاهن كنيسة «كلوين»، هذا النظام بصراحة كبرى وبوضوح ضمن ثلاثة حوارات[1]: ينبغي علينا أن ندعو كاتب الدراسة[2] للتحقق من هذا العمل واعتماداً على معارفنا، وقد يجد فيها مادة هامّة وملاحظات مفيدة ممتعة ودقيقة، وبكلمة واحدة، قد يجد ملاحظات يعرف كيفيَّة استخدامها.

يجدر بنا أن ننزع عنه صفة المثالية أيضاً، وإنَّ هذه الفرضيَّة ستضعضعه، عبر تميّزها وصعوبة نقضه مبادئها:

(1) حوارات بين هيلاس (Hylas) وفيلوموس (Philomoüs) عام 1713، ترجمها الأب غي دو مالفان (Gua de Mal-vin)، طبعة أمستردام، باريس، 1750. وحينها صدر كتاب كوندياك للتو «وثيقة حول أصل المعارف البشريَّة» عام 1746 وبدون ذكر اسم الكاتب.

(2) كان من ميز، في أوسمة الشرف في جامعة كامبريدج، من ميّز بين الميداليات الرومانية الحقيقية القديمة.

لأنّها -على وجه الخصوص- هي المبادئ التي نجدها عند بيركلي (Berekeley).

وفقاً للأوّل والثاني واعتماداً على العقل، فإنّ المصطلحات، الوجود، المادة، الكتلة الصلبة، ... إنّها لا تعني أيّ شيء بحدّ ذاتها في عقلنا، من جهة أخرى، يلاحظ كاتب «دراسة حول أصل المعارف الإنسانيَّة» أنّنا إمّا أن نرتفع إلى السماوات وإمَّا ننزل إلى الهاوية، ونحن في الحالتين لا نخرج أبداً من ذواتنا، فإنَّنا مع ذلك لا ندرك إلّا أفكارنا الخاصة بنا.

إذاً هذه هي نتيجة الحوار الأوَّل لبيركلي (Berekeley) وأساس كلّ نظامه، ولكن يا سيدتي أليس لديك الفضول لأن ترين عدوّين يستخدمان الأسلحة المتشابهة ذاتها؟ إذا كان لابدَّ أن ينتصر أحدهم على الآخر فلن يكون النصر إلّا لمن استخدم السلاح بشكلٍ أفضل، لكن كاتب «دراسة حول أصل المعارف الإنسانيَّة» قدّ قدّم للتوّ «وثيقة حول الأنظمة» وبراهين جديدة للخطاب الذي يعرف كيف

يحوِّل خطاباته وبراهينه ويظهر كم هو متقن لتلك المناهج.

ربَّما ستقولين إنَّنا قد أصبحنا بعيدين عن عميانِنا تماماً، لكن يجب أن يكون لديك تلك الطيبة يا سيدتي، وأن تسمحي لي بالحديث عن كلّ تلك الانحدارات، لقد وعدتكِ أن أقابلك لكنَّني لا أستطيع أن ألتزم بها دون هذه المكرمة.

قرأتُ، بأقصى درجات الانتباه، ما قاله سوندرسون (Saunderson) حول اللانهاية، ويمكنني أن أوكّد لك أنّ لديه أفكاراً دقيقة جداً وواضحة حول هذا الموضوع؛ إنّ كلّ هذه النقاشات المطوّلة لم تكن بالنسبة له سوى نقاشات للعميان.

ما عليك إلّا أن تحكمي عليها بنفسك مع أنّ هذه الطريقة صعبة جداً، وتمتدّ وتتجاوز حدود معارفك الرياضيَّة، وإنَّني لا أيأس أبداً وأنا أحضر نفسي كي أضعها أمام متناول يديك، وأن أجعلك تتدربين على هذا المنطق الطويل واللامتناهي.

إنّ مثال هذا الأعمى المشهور يبرهن أنّ اللمس قد يكون أهمّ وأصعب من الرؤية، حين يُتقَن عبر التدريب، لأنّه عندما يجول بيديه على مجموعة من الميداليات فإنّه سيتمكن من تمييز الميداليات الحقيقيّة من الميداليات المزوّرة[1]، ومع أنّ هذه الأخيرة قد صُنعت بشكل سيء ومقلّد تقليداً تامّاً كي يخطئها العارف الذي يمتلك عيوناً جيدة، وهو يحكم بدقّة على آلة رياضيّة حين يمرر أطراف أصابعه على أجزاء منها.

هذه هي أصعب الأشياء التي يمكن فعلها، أي أصعب من أن نتحقق عبر اللمس من الشبه بين تمثال نصفي والشخص الذي يتم تجسيده.

من هنا نرى أنّ مجموعة العميان يمكن أن يكون لديهم نحاتون، وأن يستخلصوا من التماثيل المنفعة ذاتها مثلنا؛ أي إطالة ذكرى الأعمال الجيدة للأشخاص الذين

(1) وقد جعل ديدرو د. اينشليف مسؤولًا عن افتراضاته حول لحظات سوندرسون الأخيرة، وحمل الإنكليز مسؤولية ذلك.

تجسدهم التماثيل والذين كانوا عزيزين على قلوبهم، وبدون شك إنّ الشعور الذي يختلجهم عند لمس تلك التماثيل لن يكونَ أكثر حيويَّةً من الشعور الذي يختلج حواسنا حين نراها.

ما تلك العذوبة التي يشعر بها عاشقٌ قد أحبَّ بقوة حين يمرر يديه حول الأشياء الجميلة التي يتعرّف عليها؟ وكيف يستطيع الخيال أو الوهم الذي يعتمل بعمق داخل ذواكر العميان، أكثر ممَّا هي حالة المبصرين، أن يجعلهم بحالة حيويَّة كبيرة؟

قد تشارك سوندرسون (Saunderson) مع أعمى بيزو (Puisaux) الأشياء الجيدة والسيئة ذاتها التي يخلقها ذلك الجو عندما يدركون -خصوصاً في الأوقات الهادئة- وجود الأشياء التي لا يبتعد عنها سوى بعض الخطوات.

يُروى أنّه -ذات يوم- كان يحضر نقاشاً حول المراقبات الفلكيَّة التي كانت تحدث في حديقة، كانت الغيوم تختفي

من وقت لآخر خلال تلك المراقبات وتظهر مرة أخرى، فتخفي قرص الشمس، ممّا أحدث تردّياً واضحاً في انعكاس الأشعة على عينيه، وأثّر على أهم لحظات تلك المراقبات أيضاً.

ربَّما تعتقدين أنّه كان يهزّ عيونه بطريقة تخبره عن وجود الضوء، لكن ليس حول وجود الأشياء، ربّما كنتُ سأصدّق ذلك مثلك تماماً إن لم يكن حرمان سوندرسون (Saunderson) من الرؤية أمرٌ مؤكد، بل من عضو العين أيضاً، إذاً فإنّ سوندرسون (Saunderson) كان يرى عبر الجلد، إنّ هذا الغطاء كان يتميّز بحساسيَّة خاصّة لديه، ويمكننا أن نؤكّد من خبرتنا به أنّه كان يستطيع التعرّف على أحد أصدقائه في رسمة رسّام ما قد خطّها على لوحة عبر تحسسّها بيده، وكان يمكن أن يلفظها تبعاً لتلاحق الإحساسات التي يحدثها قلم الرصاص: إنّه سيدٌ ما، يوجد إذاً رسومات خاصة بالعميان ويفيدهم جهدهم بالتعرّف عليها كأنَّها لوحة.

إنّ هذه الأفكار خياليّة نوعاً ما لأنّني لا أشكّ أبداً إن كان أحداً قد خطّ بيده رسماً لفم السيد فلان أنّكم سوف تعرفونه على الفور، مع ذلك لنتّفق أنَّ ذلك سيكون أسهل أيضاً بالنسبة للمولود أعمى وأكثر منك، بالرغم من اعتيادك على أن ترين الرسمة وتعجبين بها، لأنّ حكمك يستند على شيئين أو ثلاثة: مقارنة الرسم الذي يُرسم على يدكم مع الرسم الذي انطبع أساساً في خلفيّة عينكم، وذاكرة الأشياء التي نكتفي برؤيتها والإعجاب بها، وأخيراً تطبيق هذه المعطيات على السؤال الذي طرحه الرسّام عليك عندما خطّ رسمة فم على جلد يدك بطرف قلم الرصاص. وسألك لِمَن يعود هذا الفم الذي أرسمه؟ بدلاً من كون مجموع الإحساسات الآتية من رسمة الفم على يد الأعمى، هي ذات الأمر بالنسبة إلى كمية الإحساسات المتعاقبة التي يوقظها قلم رصاص الرسام الذي يخطها.

يمكنني أن أضيف لقصة أعمى بيزو (Puisaux) أو سوندرسون (Saunderson) قصة ديديم الإسكندريّة

(Didymme d'Alexandrie)، غوسيب الآسيوي (Eusèbe)، نيكيز دو ميشلان (Nicaise de Méchelin) وأشخاص آخرين كانوا يظهرون بمقام أعلى من باقي الرجال لكنّهم ذوو إحساس أقل، وكان يمكن للشعراء أن يستنتجون وبدون مبالغة أنّ الآلهة الغيورة قد حرمتهم منها خوفاً من وجود نظراء لهم بين الأموات.

لأنّ ذلك الـ تريزياس (Tirésias) الذي قرأ أسرار الآلهة، وكان يمتلك ملكة تنبّؤ الغيب ليس سوى فيلسوف أعمى ترسّخت قصّته في ذاكرتنا، لكن لنبق بالقرب من سوندرسون (Saunderson) ونتبع ذلك الرجل الرائع حتى لحده، فحين كان على فراش الموت، دعا إلى جانبه وزيراً حاذقاً جداً هو السيد جيرفيز هولميز (Gervaise Holmes)، تحدّثا معاً عن وجود الله، وقد بقي لدينا بعض الأجزاء التي سوف أترجمها باستطاعتي لأنّها تستحق هذه المشقّة.

بدأ الوزير بالاعتراض على عجائب الطبيعة، قال له الفيلسوف الأعمى: «آه يا سيدي! أتركُ هنا كلّ هذا المنظر الجميل الذي لم يكن قد خُلق من أجلي! لقد حُكم عليّ أن أقضي حياتي بين الظلمات وأنتم تذكرون لي حكم عظيمة لم أسمعها أبداً، وهي لا تبرهن على عظمتها إلا بالنسبة لكم وللأشخاص الذين يبصرون مثلكم، إذا أردتم أن أؤمن بالله فعليكم أن تجعلوني ألمسه».

ردّ عليه الوزير بشكل حاذق: «ضع يداك على جسدك وسوف تقابل الألوهيَّة عبر ميكانيكيَّة أعضائك الرائعة».

أجابه سوندرسون (Saunderson): سيد هولميز (Holmes)، أكرّر لك أنّ كلّ هذا ليس جميلاً إلّا بالنسبة لك وليس لي، لكن هل كانت الميكانيكيَّة الحيوانيَّة متقنة أيضاً كما تدّعي؟

أودّ تصديق ذلك لأنّك رجل شريف وغير قادر تماماً على أن تفرض عليّ هذا الأمر، ما الشيء المشترك بين هذه الميكانيكيَّة وبين كائن شديد الذكاء؟

إن كان ذلك الأمر يذهلك، فربما لأنّك معتادٌ على وصف عظمة كل ما يتجاوز قواك، كنتُ دائماً مدعاةً لإعجابك لكن لديّ أحكام سيئة وهذا ما يذهلك، لقد جذبت من عمق إنكلترا أناساً لم يتصوروا كيف أقوم بالهندسة: عليك أن تتّفق معي أنَّ هؤلاء الناس لم يكن لديهم مفاهيم دقيقة عن إمكانيَّة وجود الأشياء، من وجهة نظري، هل الظاهرة تتجاوز قدرة الإنسان؟

سوف نقول سريعاً أنّها صنيع الله، وإنّ غرورنا لن يقف عند هذا الحد، ألا نستطيع أن نعتمد في خطاباتنا نبرة أقلّ غروراً وأقلّ تكبّراً ومزيداً من الفلسفة؟

إذا كانت الطبيعة تمنحنا عقدة صعبة الفكّ، فلنترك هذه العقدة على حالها، ولنترك مسألة قطع يد كائن أصبح بالنسبة لنا عقدة جديدة يصعب فكّها أكثر من الأولى.

اسألْ شخصاً هندياً لماذا يبقى العالم معلّقاً في الهواء؟

سوف يجيبك أنّه محمول على ظهر فيل، والفيل علامَ

يستند؟ على سلحفاة، والسلحفاة من يسندها؟ ربّما أثار لك الهندي شعور الشفقة، ويمكننا أن نقول لك تماماً كما نقول له: «يا صديقي السيد هولميز (Holmes)، اعترف أولاً بجهلك وامنح عفوك للفيل والسلحفاة[1]».

توقّف سوندرسون (Saunderson) للحظة، يبدو أنّه كان ينتظر جواب الوزير، لكن كيف يمكننا أن نهاجم شخصاً أعمىً؟ أدرك السيد هولميز (Holmes) الرأي الصائب الذي كوّنه سوندرسون (Saunderson) حول استقامته، وعن أضواء نيوتن (Newton) وليبنز (Leibniz) وكلارك (Ckarke) وبعض من مواطني بلده، وهم العباقرة الأوائل في العالم، والذين ذُهلوا من عجائب الطبيعة وقد أقرّوا بوجود كائن ذكي قد صنعها، وهذا ما كان السيد الوزير يستطيع اعتراضه بشدّة حول آراء سوندرسون (Saunderson) دون أن يؤكد رأيه.

(1) انظر إلى كتاب «عناصر الفلسفة عند نيوتن»، الذي ألفه فولتير (Voltaire).

لكنّ الأعمى الطيب كان يقبل بإنكار ما قبلهُ رجلٌ مثل نيوتن (Newton)، ومع ذلك قدّم شرحاً للوزير حول شهادة نيوتن، عن الطبيعة الكاملة التي لم تكن قويّة جداً بالنسبة له، لأنّ نيوتن كان يعتقد بها وفقاً لكلام الله، بدلاً من أن يكون الله قد اكتفى بالاعتقاد بكلام نيوتن.

أضاف: «قدر يا سيد هولميز (Holmes) كم عليّ أن أثق بكلامك وكلام نيوتن؛ إنّني لا أرى أيّ شيء، ومع ذلك، عليّ أن أقبل بكل نظام مثير للإعجاب لكنّني أعتقد أنّكم لا تتطلبون شيئاً آخر، إنّني أتنازل عنه في الحالة الراهنة للكون لكي أحصل من قبلكم على حرّية التفكير بما يعجبني في حالته القديمة وفي حالته الأولى والتي لن تتعامى عنها مثلي، ليس لديك شهود لتعترض عليّ، وإنّ عيونك لن تخدمك بأيّ شيء، تخيّلْ إذاً، إن شئت، النظام الذي يذهلك قد وُجدَ دائماً، لكن دعني أصدّق أنّه لم يكن شيئاً، وإذا عدنا إلى ولادة الأشياء والأزمنة وإذا أدركنا أنّ المادة قد تحرّكت وأنّ الفوضى قد تنظّمت، فإنّنا سوف نتعرّف على الكثير من الكائنات غير المنتهية التي

يمكن اعتبارها كائنات عظيمة جيّداً، وإن لم يكن لديّ أيّ اعتراض على كلامك حول وضع الأشياء الحالي، فأستطيع على الأقلّ أن أسألك عن وضع الماضي، على سبيل المثال يمكنني أن أسألك: من قال لك ولكلارك (Clarke) ولنيوتن أنّه في اللحظات الأولى لخلق الحيوانات لم تكن بدون رأس وبعضها بدون قوائم؟

يمكنني أن أفترض أنّ هذه الحيوانات لم يكن لديها بطون أبداً، وبعضها لم يكن لديه كلى، وتلك التي ليس لديها بطون، كان الحنك والأسنان لديها تبدو كأنّها ستبزغ قريباً، وقد توقّفت بسبب مشاكل في القلب والرئتين، وأنّ الوحوش قد فنيت بالتعاقب، وأنّ كلّ الأجزاء المؤذية في المادة قد اختفت، لم يبقَ سوى الأعضاء أو المواد التي لا تفرض فيها الميكانيكيَّة أيّ اعتراض هام، والتي يمكن أن تتبدل من ذاتها وتبقى على هذه الحال دائماً.(1)

---

(1) ألحقنا بهذه الرسالة «رسالة حول العميان»، الملحق الذي ألفه ديدرو بعد زمن طويل والذي لم يكن قد أضافه إليها... وإن هؤلاء الذين يتهمون الكاتب بأنّه لم يكتب إلا بشغف وطيش

إذا افترضنا هذا الأمر فإنَّ الإنسانَ الأوَّل كان لديه حنجرة مغلقة وقد حُرم من الأغذية الملائمة، وأنّه قام بفعل الصيد عبر أعضاء التناسل الخاصة به، وأنّه لم يقابل زوجته أبداً، أو أنّه انتشر في فضاء آخر يا سيد هولميز (Holmes)، فكيف سيكون حال النوع البشريّ؟ وأنّه قد شُمل بالتنقية العامة للكون، وهذا الكائن المتكبّر الذي يُسمى «الإنسان» قد انحلّ وتبعثر في جزيئيّات المادة وقد بقي فيها لقدر كبير ممكن وربّما للأبد، وإن لم يكن هناك أبداً كائنات غير عادية، فإنّك لن تنسى الادعاء أنّه كان هناك دائماً كائنات كهذه، وفي هذه النقطة أركّز على الفرضيَّات الوهميَّة، لكن نظام العالم ليس متقناً، -والحديث هنا لسوندرسون (Saunderson)- أنّه لم يظهر من وقت لآخر إنتاجات فظيعة»، ثمّ استدار نحو الوزير وأضاف: «انظرْ إليّ جيداً سيد هولميز (Holmes)، ليس لديّ

وأنّه كان قاسياً وحازماً لم يقرؤوا بالتأكيد كل أعماله، وإن هذا الملحق يكفي للبرهنة على خطأهم. الكاتب ب. ديبنغ (B. Depping).

عيون، ماذا فعلنا لله أنا وأنت، واحدنا يمتلك ذلك العضو والثاني محرومٌ منه؟».

كان سوندرسون (Saunderson) يبدو حقيقيّاً، وقد اختلّ توازنه عندما قال هذه الكلمات، وإنَّ الوزير وباقي المجلس لم يستطيعوا إلّا أن يشاطروه ألمه، بدأوا يبكون بمرارة عليه، تنبّه الأعمى لبكائهم وقال للوزير: «سيد هولميز (Holmes)، لقد عرفتُ طيبة قلبك، وأنا حسّاس جداً لتلك البراهين التي تقدّمها لي في اللحظات الأخيرة، لكن إن كنتُ عزيزاً على قلبك لا تحسدني وأنا أموت، فعزائي أنّني لم أعذّب أحداً أبداً»، ثمّ أضاف بنبرة أكثر حزماً: «أعتقد أنّه في البداية، عندما كانت المادة تتخمّر ليتفتّح الكون، كان الأشخاص الذين يشبهونني كثر، لكن لماذا لا أؤكّد أنّ هذه العوالم هي ذاتها عوالم الحيوانات؟

كم هناك من العوالم المخفية أو الناقصة قد اختفت! ربّما أعيد تشكيلها أو تلاشت في كلّ لحظة في الفضاءات

البعيدة التي لا ألمسها أبداً وأنت لا تراها أبداً، لكن حركتها الدائمة متواصلة وستستمرّ في تشكيل جزيئات المادة إلى أن ترتّب جسداً ما وتستطيع البقاء فيه؟

أيّها الفلاسفة، انتقلوا معي إذاً إلى تخوم هذا الكون، إلى ما وراء النقطة التي ألمسها وسوف ترون كائنات منظّمة، تنزّهوا على هذا المحيط الجديد وابحثوا عبر تداخلاته غير النظاميَّة عن بعض آثار ذلك الكائن الذكي الذي تعجبون بحكمته؟ لكن ماذا سوف تستنتجون من ذلك العنصر؟ ما هذا العالم يا سيد هولميز (Holmes)؟ إنّه موضوع مركّب من الثورات التي تشير جميعها إلى ميول مستمرّة للتدمير، إنَّه تتابع سريع من الكائنات التي تلاحق بعضها وتتدافع وتختفي، إنّه تناظر لحظي، نظام مؤقت.

كنتُ أعاتبكم حول الإعجاب بإتقان الأشياء -من خلال قدراتكم- ويمكنني أن أتهمكم الآن حول كيفيَّة قياس الزمن وزمن أيامكم، أنتم تحكمون على الوجود المتعاقب للكون مثل حكمكم على الذبابة الزائلة.

إنَّ الكونَ خالد وباقٍ بالنسبة لكم، كما أنّكم باقون بالنسبة للكائن الذي لا يعيش إلّا لحظة واحدة، وهنا فإنّ الحشرة أكثر تعقّلاً منكم، ما هو ذلك التعاقب العظيم للأجيال الزائلة الذي يشهد على خلودكم وبقائكم؟ ما هذه العادات المفرطة؟ ومع ذلك سوف نمضي جميعنا دون أن نحدّدَ بدقّة الاتّساع الحقيقيّ للمكان الذي نشغله ولا الوقت المحدد الذي استغرقناه في هذا الكون؛ إنّ زمن المادة والمكان ربّما لا يكون إلّا نقطة».

تخبّط سوندرسون (Saunderson) في هذا اللقاء أكثر ممّا تسمح حالته العادية بذلك، انتابه فرط من الهذيان الذي استمرّ لبضع ساعات ولم يخرج من هذه الحالة إلّا حين صرخ: «يا إله كلارك (Clarke) ونيوتن، أشفق على حالي»، ومن بعدها مات، وهكذا انطفأ سوندرسون (Saunderson).

أترين سيدتي؟ إنّ كلّ هذه الأفكار التي اعترض عليها أمام الوزير لم تكن قادرة على أن تطمئن أعمىً، عارٌ على

الأشخاص المبصرين الذين لا يملكون حججاً وأفكاراً أفضل من حججه، لأنّ منظر الطبيعة المذهل يعلن لهم منذ شروق الشمس حتى غروبها وظهور نجوم الليل الأولى، يعلن لهم وجود وعظمة خالقها؛ إنّ لديهم عيوناً قد حُرم منها سوندرسون (Saunderson) لكنّه كان يمتلك براءة في أخلاقه ووضوحاً في طباعه، أمّا هم فكانوا يفتقدون لها، إذاً فهم يعيشون كأنّهم عميان في حين أنّ سوندرسون (Saunderson) مات كأنّه كان مبصراً.

لقد كان يسمع صوت الطبيعة بشكل كافٍ عبر الأعضاء التي بقيت لديه، وإنّ شهادته لن تبقى قويّة إلّا ضدّ هؤلاء الذين يغلقون آذانهم وعيونهم بعناد، أتساءل إذا كان الإله الحقيقيّ لم يكن محجوباً بالنسبة إلى سقراط -عبر ظلمات الوثنيّة- وذات الأمر بالنسبة إلى سوندرسون (Saunderson) عبر حرمانه من البصر ومنظر الطبيعة؟

أنا غاضب يا سيدتي، لأنّه من أجل إرضائك وإرضائي،

إنّهم لا ينقلون لنا من هذا الأعمى المشهور خصائصه الأخرى الهامّة، ربّما كان هناك الكثير من الأنوار التي يمكن استخلاصها من أجوبته أكثر من أيّ تجارب تقدّم لنا، يجب على هؤلاء الذين كانوا يعيشون معه أن يصبحوا فلاسفة! مع ذلك فإنّني أستثني منهم زميله السيد وليم اينشليف (William Inchlif) الذي لم يرَ سوندرسون (Saunderson) إلّا في لحظاته الأخيرة والذي سمع خطاباته، وأقترح، على كلّ الذين يفهمون الإنكليزية، أن يقرؤوا النص بلغته الأصليّة الذي طُبع في دبلن (Dublin) عام 1747، بعنوان «The life and charachter of Dr. Nicolas Saunderson late lucasian professor of the mathematicks in the university of Cambridge; by his disciple and friend Willam Inchlif, esq» (حياة وطبائع الدكتور نيكولا سوندرسون أستاذ الرياضيات في جامعة كامبريدج، بقلم تلميذه ويليام اينشليف)، سيجدون فيه فائدة، وقوّة وحقيقة وعذوبة لا نراها في أيّ عمل آخر،

وإنّني لا أمتدح نفسي حين أقدّمها لك، رغم كلّ الجهود التي قدّمتُها لأحتفظ بها هي ترجمتي.

لقد تزوّج سوندرسون (Saunderson) عام 1613 من ابنة السيد ديكونز (Dickons) وهو محافظ بوكسوورث (Boxworth) في محيط مدينة كامبريدج (Cambridge) وقد رُزق بولد وبنت وهما يعيشان حتّى الآن.

إنّ الوداعات الأخيرة التي قدّمها لعائلته مؤثّرة جداً، قال لهم: «سوف أذهب حيث سنذهب جميعاً، اعفوني من الندب الذي يثير شفقتي؛ إنّ شهادات الألم التي تقدموها الآن تجعلني أحسّ أكثر بتلك التي سأفتقدها، إنّني أتخلّى وبدون ألم عن حياة لم تكن بالنسبة لي سوى رغبة طويلة وحرماناً مستمراً، عيشوا بنعمة الفضيلة والسعادة وتعلّموا أن تموتوا بهدوء»، ثمّ أخذ يد زوجته وضمّها لحظة بين يديه، أدار وجهه كما لو كان يريد أن يراها، بارك أولاده، قبّل الجميع ورجاهم أن يبتعدوا لأنّهم كانوا

يقدّمون لروحه أوجاعاً أكثر قسوةً من مآخذ الموت.

إنّ إنكلترا هي بلد الفلاسفة الفضوليين والمنهجيين، ومع ذلك لولا السيد اينشليف (Inchlif) لما تعرفنا على السيد سوندرسون (Saunderson)، إلّا ما كان سيخبرنا عنه الرجال العاديون، على سبيل المثال: إنّه كان يتعرّف على الأماكن التي دخلها مرّة واحدة عبر الحيطان والأرض المبلّطة، لكن حين كانوا يقومون بكلّ الأشياء الاعتياديّة ذات الطبيعة الواحدة والمتساوية بالنسبة إلى كل العميان، من سنقابل في إنكلترا عمياناً من مقام سوندرسون (Saunderson)؟ وهل سنجد كل يوم أناساً لم يروا أبداً؟ هل يقدّمون لنا دروساً في النظر؟

نحن نبحث عن إعادة النظر للمولودين عمياناً، لكن إذا نظرنا للأمر من كثب، أعتقد أنّنا قد نجد فائدةً أكبر بالنسبة إلى الفلسفة عندما نسأل أعمى ذا إحساس جيد، سوف نتعلّم كيف تحصل الأشياء في داخله وسوف نقارنها مع الطريقة التي نقوم بها نحن وربّما سوف نقوم عبر هذه

المقارنة بإيجاد الحلول للمشاكل التي تجعل نظريَّة ورؤية الإحساسات مربكة وغير مؤكّدة. لكنَّني أعترف أنَّني لا أدرك ماذا نأمل في رجل أجريت له عمليَّة مؤلمة حول عضو حساس جداً يزعجه أي حادث بسيط ويخدع دائماً الأشخاص الذين يتمتعون بهذا العضو منذ زمن بمزاياه.

بالنسبة لي، سأستمع وبقبول أكبر إلى نظريَّة الإحساسات لشخص ميتافيزيقي قد ألّفَ مبادئ الميتافيزيقيا وعناصر الرياضيات وتشكيل الجزيئيَّات أكثر من الاستماع إلى رجل بدون تربية وبدون معارف والذي أُعيدت له الرؤية عبر عمليَّة تصحيح البصر، وأنا لا أثق كثيراً بأجوبة شخص يرى من المرة الأولى أكثر من اكتشافات فيلسوف تأمّل طويلاً موضوعه في العتمة، أو- كي أكلّمكِ بلهجة الشعراء- الذي أضنى عينيه كي يصل إلى المعرفة وأكثر من حصوله عليها بسهولة عبر النظر.

إذا أردنا أن نعطي مصداقيَّة للتجارب، علينا على الأقل أن نحضّر موضوعها لوقت طويل، أن نشيّده وأن نجعله

موضوعاً فلسفياً، لكنّه ليس عمل لحظة، أي أن نقوم بعمل الفيلسوف حتى حين نكون فلاسفة، سيصبح هذا العمل ممكناً عندما لا نكون في مجال الفلسفة، إنّه أصعب ممَّا قد نتصوّره.

سيزيد الأمر عن حدّه عندما لا نبدأ بقياس الملاحظات إلّا بعد زمن طويل من العمليَّة؛ لهذا الأمر، يجب أن نعاين المريض في العتمة لكي نتحقق أنَّ جرحه قد شفي وأنَّ عيونه قد أصبحت سليمة، لا أريد أن نعرّضه في البداية إلى ضوء النهار؛ إنَّ سطحَ الضوء الحيّ يمنعنا من الرؤية، إنّه لن ينتجَ أيّ شيء من عضو -عليه أنه يكون على درجة كبيرة من الحساسية- قبل أن يشكّل أيّ انطباع قد أذهله! لكن الأمر لم ينتهِ بعد، قد يكون نقطة هامة أكثر من استخلاص الفائدة من موضوع قد حُضّرَ بهذا الشكل، أو أن نسأله -المولود أعمى- بدقة كبيرة كي لا يفصح بالضبط عمّا يجول في داخله، يجب أن تتم هذه المسائلة ضمن المؤسَّسة الأكاديميَّة، أو بالأحرى، كي لا يكون هناك حضور زائد، وألا ندعو إلى هذا المجلس سوى

الأشخاص الذين يستحقون عبر معارفهم الفلسفيَّة، الطبيَّة، ...

قد لا يكون الأشخاص الأذكياء ذوو العقول النيرة صالحين لهذا الحضور؛ إنَّ تحضير مساءلة مولود أعمى لم يكن أبداً عملاً لا يقلّ قدراً عن مجموع مواهب كلّ من نيوتن (Newton)، ديكارت (Descartes)، لوك (Locke)، لايبنز (Leibniz).

سأنهي هذه الرسالة، التي كانت طويلة جداً، بسؤال تم اقتراحه منذ فترة طويلة، جعلتني بعض الأفكار حول الحالة الفرديَّة لسوندرسون (Saunderson) أرى أنَّه لم تُحل بالكامل.

لنفرض أنَّ رجلاً أعمى منذ ولادته قد أصبح رجلاً وعُلّمَ التمييز عبر اللمس بين مكعب وكرة من نفس المعدن وبنفس الحجم تقريباً بحيث عندما يلمس أحد هذين الشيئين سيتمكن من معرفة أيّ منهما مكعب وأيّ منهما كرة.

كان مولينو (Molineux) أوّل من طرح هذا السؤال وحاول حلَّه، وأعلن أنَّ الأعمى قد لا يميز الكرة من المكعب، كما قال: «لأنَّه، على الرغم من أنَّ الأعمى تعلم، من خلال التجربة، كيف تؤثر الكرة والمكعب على ملمسه، إلَّا أنَّه لا يعرف حتى الآن أنَّ ما يؤثر على لمسته بهذه الطريقة أو تلك، يجب أن يلفت نظره بطريقة أو بأخرى، ولا أنَّ الزاوية المتقدمة للمكعب الذي يضغط على يده بشكل غير متساوٍ يجب أن تظهر لعينيه كما تظهر في المكعب».

عند سؤاله حول هذا الموضوع، قال لوك (Lock): «أوافق تماماً مشاعر السيد مولينو، أعتقد أنَّ الأعمى لن يكون قادراً على التحقق، من النظرة الأولى وبثقة من شكل المكعب والكأس إذا اكتفى بمشاهدتهما، أمَّا إذا لمسهما فسيستطيع تسميتهما وتمييزهما عبر اختلاف شكليهما، وإنَّ حاسة اللمس تجعله يتعرّف إليهما.

إنَّ السيد كونديياك (Condillac) الذي قرأتم كتابه

«دراسة عن أنواع المعارف البشريَّة» بكثير من المتعة والفائدة، وأرفق لكم، مع هذه الرسالة كتابه الرائع «دراسة الأنظمة»، لديه شعور خاص في هذا الشأن.

من غير المجدي أن أنقلَ لكم الأسباب التي يستند عليها، ربَّما أثير لديكم الرغبة بإعادة قراءة كتاب أو عمل تشرح فيه هذه الأسباب بطريقة جميلة جداً وفلسفيَّة، ومن جهتي قد أخشى أن أضعها في مكان آخر، سوف أكتفي بتوضيح أنَّها تميل جميعها للتشكيك بأنَّ المولود أعمى لا يرى شيئاً، أو أنَّه يرى السطح والمكعب بشكلٍ مختلف، وأنَّ الظروف التي تجعل من هذين الشكلين المصنوعين من المعدن ذاته والمتساويين بالحجم، والتي حكمنا عليها عبر إدخال جوهر الموضوع ربَّما تكون زائدة عن حدّها، أو غير مهمة، وهذا الأمر لا يمكن التشكيك به، لأنَّه قد يقول: إن لم يكن هناك أيّ علاقة أساسيَّة بين حاسة الرؤية وحاسة اللمس كما يدعي السيدان لوك (Lock) ومولينو (Molineux)، وأنَّ عليهما أن يتفقا على إمكانيَّة رؤية ساقين لقطر الجسم الذي قد يختفي تحت يدينا.

يضيف السيد كوندياك (Condillac): إذا كان المولود أعمى يرى الأجساد ويميز الاشكال، ويتردد حول الحكم الذي يصدره بشأنها، لن يكون ذلك إلَّا عبر الأسباب الميتافيزيقيَّة القويَّة التي سأشرحها لك بعد قليل؛ هذه هي إذاً المشاعر المختلفة حول المسألة ذاتها، وبين الفلاسفة من الطراز الرفيع، وبعد أن عدلها أشخاص مثل مولينو (Molineux) ولوك (Lock) والأب كوندياك (Condillac)، فإنَّنا لا نستطيع أن نقولَ شيئاً إضافياً حول هذه المسألة وهناك الكثير من الجوانب التي يمكن أن ندرس هذه المسألة عبرها، قد لا يكون الأمر مدهشاً إن لم يكونوا قد درسوها جميعاً.

أولئك الذين قالوا إنَّ المولود أعمى قد يميّز المكعب والسطح، قد بدأوا بافتراض حدث ربَّما قد عاينه، أي معرفة أنَّ المولود أعمى الذي أجريت له عمليَّة تصحيح البصر، قد يستفيد من عيونه في اللحظات الأولى التي تتبع العمليَّة.

لقد اكتفوا بالقول إنَّ المولود أعمى يقارن أفكار السطح والمكعب التي تلقاها عبر اللمس مع تلك التي تعلمها بالرؤية وسيعرف حتماً أنَّها متشابهة، وسيكون من الغريب القول إنَّ ما يقدمه له المكعب عبر الرؤية هو فكرة السطح، ومن خلال هذا السطح تصل إليه فكرة المكعب، إذاً سيسمي السطح والمكعب عندما يراهما تماماً كما سيسميهما سطح / مكعب عندما يلمسهما.

لكن ما هو الجواب والتفكير المتعلق بشخصياتنا الأساسيَّة؟

لقد افترضوا بشكل مشابه أنَّ المولود أعمى سيرى سريعاً عندما تكون عينه سليمة، قد تخيلوا أنَّ هناك عيناً قد صُحح بصرها تماماً كما هو الأمر بالنسبة إلى الذراع الذي أصيب بشلل فهو لا يقوم بأيّ تمرين ولا يحس به أبداً، وأضافوا: «فلنمنح الإحدى والعشرين مولوداً عمياناً قليلاً من الفلسفة أكثر ممَّا نعطيهم، وبعد أن نتقدم في هذا التفكير إلى النقطة التي تُرِك فيها، سيتابع تفكيره

انطلاقاً منها، ومع ذلك، من أكّد لي أنّني حين أقترب من هذه الأجساد وأضع يدي عليها أنّها لن تخونَ فجأةً أفق توقعي وأنَّ المكعب لن يعيد إحساسي بالسطح، وأنَّ السطح سيعيد لي إحساسي بالمكعب؟

ليس هناك سوى التجربة التي يمكن أن تعلمنا إنْ كان هناك تطابق في العلاقة بين الرؤية واللمس، وإنَّ هاتين الحاستين يمكن أن تتعارضا في علاقتهما ببعضهما البعض دون أن أعرف عنهما شيئاً.

قد أعتقد أنَّ ما يبدو أمام مرأى عيني ليس سوى شكلاً بحتاً إن لم يخبروني أنّها كانت هي الأجساد ذاتها التي لمستها، وفي الحقيقة يبدو لي أنَّ هذا الجسد هو ما كنت أسميه مكعباً، وهذا الجسد الذي أسميه سطحاً أيضاً، لكن لم يسألوني ما يبدو لي بل يسألوني ما هو شكله، ولن أقدّمَ إجابةً كافية على هذا السؤال الأخير أبداً «.

يقول كاتب الدراسة حول «أصل المعارف البشريَّة»: إنَّ هذا التفكير قد يكون محرجاً بالنسبة للمولود أعمى، ولا

أرى سوى التجربة التي يمكن أن تقدم له جواباً، يبدو أنَّ السيد الأب كوندياك (Condillac) لا يريد التحدث بهذا الشأن إلَّا عن تجربة المولود أعمى التي يكررها بنفسه حول الأجساد أي عبر اللمس المتكرر، سوف تدركين بعد قليل سبب تقديم تلك الملاحظة.

في المحصلة، إنَّ هذا الميتافيزيقيّ الماهر كان يستطيع أن يضيفَ أنَّ المولود أعمى عليه إيجاد طريقة أقلّ عبثيَّة ليفترض أنَّ حاستين تتناقضان، وأن يتخيل مرآة ويضعهما فيهما كما لاحظت في المقاطع السابقة.

يلاحظ السيد كوندياك (Condillac) أنَّ السيد مولينو (Molineux) قد أثقل هذا السؤال عبر عدة شروط لا تستطيع أن تتنبأ أو ترفع الصعوبات الميتافيزيقيَّة التي قد تتشكل أمام المولود أعمى.

إنَّ هذه الملاحظة دقيقة أو صحيحة جداً لدرجة أنَّ الميتافيزيقيا التي نجدها عن المولود أعمى لم تتغير ماهيتها باعتبار أنَّه- في هذه المسائل الميتافيزيقيَّة- على التجربة أن

تبقى مركزة على الفيلسوف، بعبارة أخرى على شخص يستطيع إدراك الأسئلة التي نطرحها عليه؛ أي حول كلّ المسائل الفكريَّة والظروف المتعلقة بأعضائه والتي تسمح له بفهمها.

سيدتي، هذا إذاً باختصار كلّ ما قيل حول هذه المسألة، وسوف ترين أنَّ كلَّ الفحص الذي قمت به كيف أنَّ هؤلاء الذين أعلنوا أنَّ المولود أعمى قد يرى الأشكال ويميز الأجساد، كانوا بعيدين عن الصواب، وكيف أنَّ الأشخاص الذين أنكروا ذلك كان لديهم أسباباً للتفكير، ولم يكونوا على خطأ أبداً؛ إنَّ مسألة المولود أعمى التي قُدّمَت أكثر ممَّا طرحها السيد مولينو (Molineux) عموماً، تحرج شخصين آخرين سوف نقدم حالتهما بشكل منفصل أيضاً.

عندئذٍ يمكننا أن نطرح مسألتين:

المسألة الأولى: إذا كان المولود أعمى سيرى سريعاً حالما تنتهي عمليَّة تصحيح البصر لديه.

المسألة الثانية: في حال أنَّه رأى، هل يرى بشكل كافٍ ويميز الأشكال؟ وإذا تمكن من أن يسميها بأسمائهما عندما يراهم أي بالطريقة التي يمكن أن يسميها عندما يلمسها؟ إذا كان لديه العرض الكافي لهذه الأسماء، والأسماء المناسبة لأشكالها؟ هل سيرى المولود أعمى مباشرةً بعد شفاء عينيه[1]؟

يقول هؤلاء الذي يدّعون أنَّه لن يرى أبداً: «حالما يتمتع المولود أعمى بملكة البصر، فإنَّ كلَّ المشهد الذي يراه أمام منظور عينيه، سوف يرتسم في خلفيَّة العين، وأنَّ هذه الصورة مكونة من أشياء دقيقة ولا متناهية ومتجمعة في فضاء صغير ليست سوى أضغاث مختلطة من الأشياء التي لا يستطيع أن يميزها واحدةً من الأخرى.».

نحن شبه متفقين أنَّه لا يوجد تجربة يمكننا أن نعلمها له كي يحكم على مسافة الأشياء، وأنَّه بحاجة ليقترب منها،

(1) وجب التنويه إلى أنَّ الكلمة المستخدمة من قبل الفيلسوف ديدرو هي «organe» أي العضو، ولضرورة فهم النص ارتأيت أن أترجمها بكلمة عينيه. (المترجم).

ليلمسها، وليبتعد عنها، ليقترب منها مرة أخرى ويلمسها مرة أخرى كي يتأكد أنَّها لا تشكل جزءاً منه؛ أي إنَّها غريبة عن كيانه، تارة قريبة منه وتارة بعيدة عنه: لماذا لا تكون التجربة ضروريَّة كي يدركها؟

بدون التجربة، على الشخص الذي يدرك الأشياء من المرة الأولى أن يتخيل حين تبتعد عنه هذه الأشياء، أو يبتعد عنها، أنَّه فيما وراء مدّ نظره، قد انتهى وجودها، وأنَّه لا توجد إلَّا التجربة التي نقوم بها حول الأشياء دائمة الوجود التي نجدها في المكان ذاته حيث تركناها، والذي يجعلنا نتحقق من وجودها المستمر رغم ابتعادنا عنها، ربَّما لأجل هذا السبب يشعر الأطفال بالمواساة إذا حرمناهم من الألعاب التي يلعبون بها، لا يمكننا القول إنَّهم يستطيعون النسيان بسرعة لأنَّنا إذا اعتبرنا أنَّ هناك أطفالاً يبلغ عمرهم سنتين ونصف يفهمون قدراً كافياً من الكلمات بلغة ما، ولا يكلفهم شيئاً أن يلفظوها كي يحفظوها، سوف نقتنع أنَّ زمن الطفولة هو زمن الذاكرة.

عندئذٍ أليس من الطبيعي الافتراض أنَّ الأطفال يتخيلون أنَّ كلَّ ما توقفوا عن رؤيته قد توقف عن الوجود، ويكون فرحهم ممزوجاً بالإعجاب عندما تظهر الأشياء التي فقدوها من جديد؟ تساعدهم المربيات على اكتساب مفهوم الكائنات الغائبة حين تجعلهم يلعبون لعبة صغيرة تقضي أن يغطوا وجوههم ويكشفوها فجأةً؛ إنَّهم يقومون بهذه الطريقة مئات المرات في غضون ربع ساعة، وإنَّ التجربة التي توقفت عن الظهور لا تتوقف عن الوجود، وينتج عن ذلك أنَّ التجربة التي علينا القيام بها حول مفهوم الوجود المستمر للأشياء؛ أي إنَّه عبر اللمس نكتسب مفهوم مسافتها، وربَّما يجب على العين أن تتعود على الرؤية كما يتعود اللسان على الكلام، وقد لا يكون مذهلاً اللجوء إلى حاسة ضروريَّة من أجل حاسة أخرى، وإنَّ اللمس الذي يجعلنا نتأكد من وجود الأشياء خارج وجودنا عندما تكون حاضرة أمام أعيننا، ربَّما إنَّ الحاسة التي تجعلنا نتحقق من تلك الأشياء، ولا أقول من الأشكال وتغيراتها لكن من وجودها أيضاً،

نضيف إلى هذه الأفكار التجارب الشهيرة لشيسلدن (Cheselden).

لم يميز الشاب الذي صحح له الطبيب الجراح الماهر بصره منذ زمن طويل لا الارتفاعات، ولا المسافات، ولا المواقف، ولا حتى الأشكال، وُضِع أمامه شيئاً بحجم البوصة وكان يخفي بيتاً أمامه، كان يبدو له أكبر من ذلك البيت، وكانت هناك كلّ الأشياء أمام عينيه، وقد بدت له مركزة على ذلك العضو كما تبدو أشياء اللمس على جلدي.

لم يكن يستطيع أن يميز ما قد حكم عليه كشكلٍ دائريّ بمساعدة يديه مع ما حكم عليه على أنَّه زاوية ولا التمييز بعينيه ما شعر أنَّه مرتفع أو منخفض أيضاً، وقد كان في الواقع مرتفعاً أو منخفضاً، وبعناء كبير، توصل لإدراك أنَّ منزله كان أكبر من غرفته لكنَّه لم يكن يدرك أبداً كيف تقدم له عينه هذه الفكرة، كان يلزمه الكثير من التجارب المكررة ليتأكد أنَّ الرسومات كانت تشكل أجساماً صلبة،

وعندما اقتنع بذلك من كثرة رؤيته للوحات؛ أي إنَّها لم تكن مساحات مسطحة يراها أمامه أبداً، وكان يمرر يده عليها، وقد ذهل حين لم يجد إلَّا مخططاً موحداً وبدون أي فراغ: عندها تساءل من خدعهُ: أهي حاسة اللمس أم حاسة البصر؟ في النهاية، كان للوحة الأثر ذاته على الأشخاص الهمجيين وذلك في المرة الأولى التي رأوها فيها.

لقد ظنوا أنَّ الأشكال المرسومة هم أشخاص أحياء، وقد سألوها وتفاجؤوا حين لم يصلهم منها أيّ رد، لم يأتِ ذلك الخطأ أبداً من قلَّة اعتمادهم على الرؤية، لكن كيف نجيب على الصعوبات الأخرى؟

في الواقع إنَّ العين الخبيرة للإنسان ترى الأشياء بشكل أفضل من العضو الغبي والجديد لطفل ما أو لمولود أعمى، والذي صحح بصره للتو.

سيدتي، هل ترين كلّ الأدلة التي يقدمها السيد الآب كوندياك (Condillac) في نهاية كتابه «دراسة حول

أصل المعارف البشريَّة» التي يقدم فيها اعتراضاً على تجارب شيسلدين (Cheselden)، والتي أخذ بها السيد فولتير (Voltaire).

إنَّ أثرَ الضوء على عين ما بعد أن ألقيَ عليها للمرة الأولى والشروط المكتسبة في مزاجات هذا العضو أي القرنيَّة والبلوريَّة...، المعروضة بكثير من الوضوح والقوة، لا تسمح أبداً بالشك أنَّ الرؤية لا تتم بشكل كامل بالنسبة إلى طفل يرى بعينيه للمرة الأولى أو عند أعمى أجريت له العمليَّة للتو.

علينا أن نتفق على ضرورة إدراك عدد لا متناهٍ من الأشياء التي لا يدركها الطفل ولا المولود أعمى إلَّا إذا انطبعت في عمق عيونهم، ولا يكفي أن نقابل الأشياء بل علينا أيضا أن ننتبه إلى انطباعاتها، وبالنتيجة إنَّنا لا نرى أيّ شيء في المرة الأولى التي نستخدم فيها عيوننا، وإنَّنا نتأثر في اللحظات الأولى للرؤية بمجموعة من الإحساسات المتداخلة التي لا تنكشف إلَّا مع مرور الوقت، وذلك

التفكير الاعتيادي الذي يحصل داخل ذواتنا، والتجربة وحدها هي من تعلمنا المقارنة بين الإحساسات وما يثيرها؛ أي إنَّ الإحساسات لا يوجد فيها ما يشبه الأشياء بصورة أساسيَّة أبداً بل إنَّ التجربة تعلمنا تلك المقاربات المبنية على قواعد صافية أو نقية.

بعبارة واحدة، لا يمكننا الشكّ أنَّ حاسةَ اللمس لا تفيد كثيراً بإعطاء العين تجربة دقيقة عن تطابق الشيء مع الشكل الذي ندركه، وأعتقد إذا كان كلّ شيء يتم في الطبيعة عبر قوانين عامَّة جداً، أي على سبيل المثال إذا وخزنا بعض الأجساد القاسية وخزةً مؤلمة في حين أنَّ بعض الأجساد الأخرى يتم وخزها بشيء من المتعة فإنَّنا سنموت دون أن نستقبلَ مئات الأجزاء المليونية للتجارب الضروريَّة لحفظ جسدنا وسلامتنا، مع ذلك لا أعتقد أبداً أنَّ العين لا يمكنها أن تتعلم، أو إن جاز التعبير أن تمتلك الخبرة بذاتها، ولكي نتأكد عبر اللمس من شكل الأشياء، ليس من الضروري أن نرى، ولماذا علينا أن نلمس الأشياء كي نتحقق منها عبر الرؤية؟ أعرف كلّ عميان اللمس ولم

أضع عليهم قناعاً أبداً، عندما أثرنا مشكلة سوندرسون (Saunderson) أو أعمى بويزو (Puisaux)، لكنَّني لم أتعرف أبداً على هذا الأخير.

ندرك -بدون عناء- أنَّه يمكننا إتقان استخدام الحواس بسرعة عبر ملاحظات الآخر، لكن لا يوجد أبداً استقلاليَّة أساسيَّة في وظائفها، وبلا شك هناك ميزات في الأجساد لا يمكننا إدراكها أبداً عبر تحسسها باليد، إنَّ اللمس هو الذي يعلمنا بوجود بعض التغيرات التي لا تميزها العيون، وهذه الأخيرة «العيون» لا تدركها إلَّا حين يتم إيقاظها عبر حاسة اللمس.

تبدو هذه الخدمات مشتركة بالنسبة إلى الأشخاص الذين يمتلكون حاسة رؤية دقيقة جداً أكثر من حاسة اللمس، وإنَّ أوَّلَ هذه الحواس هو من يعلم الحاسة الأخرى بوجود التغيرات التي يمكن ألَّا تدركها الحاسة الثانية.

إذا وضع أمامكم -بدون علمكم- بين السبابة والخنصر

ورقة أو مادة متجانسة نحيفة وقابلة للطي، وحدها عينكم من يمكنها أن تخبركم أن تماس هذه الأصابع لن يتم بصورة مباشرة، وبهذه المناسبة سنلاحظ أنَّه سيكون من الصعب أن نخدع شخصاً أعمى أكثر من شخص اعتاد أن يرى، وإنَّ العين الحيَّة التي ترى قد يصعب عليها التحقق من الأشياء الخارجيَّة التي لا تشكل جزءاً منها، وإنَّها تارة تكون قريبة وتارة بعيدة، ولديها شكل معين وبعضها أكبر من البعض الآخر ولديها عمق...

لكنَّني لا أشك أبداً أنَّه لا يراها على مرّ الزمن؛ أي إنَّه يراها بشكل منفصل كي يميز على الأقل حدودها الكبيرة، وإنَّ إنكار هذا الشيء قد يعني فقدان الرؤية المخصصة لذلك العضو ونسيان الظواهر الأساسيَّة للبصر، أي إنكار أنَّه لا يوجد رسام ماهر بشكل كاف كي يقارب بين الجمال ودقة الجزيئيَّات الصغيرة «المنمنمات» التي ترتسم في عمق عيوننا، وأنَّه لا يوجد أدق من التشابه بين الرسمة والشيء المرسوم، وأنَّ لوحة هذه الرسمة ليست صغيرة جداً، ولا يوجد أيّ غموض بين هذه الأشكال

وأنَّها تشغل تقريباً نصف بوصة مربعة، ومن جهة أخرى لا يوجد أصعب من شرح كيف تتعامل حاسة اللمس كي تعلّم العيّن إدراك اللوحة، إذا كان استخدام هذا العضو الأخير «العيّن» مستحيلاً دون مساعدة الحاسة الأولى، لكنَّني لا أعتمد على التخمينات البسيطة وسوف أتساءل إذا كانت حاسة اللمس هي من تعلم العين التمييز بين الألوان.

لا أعتقد أنَّنا نمنح حاسة اللمس ميزة رائعة، وإن افترضنا ذلك فالنتيجة ستكون أنَّه إذا قدمنا لأعمى ما - صُحّحَ بصره للتو- مكعباً أسوداً كي يراه مع سطح أحمر ويوجد وراءه خلفيَّة بيضاء، فلن يتأخرَ بتمييز حدود هذه الأشكال.

قد تجيبوني بأنَّه سيتأخر، وذلك الوقت ضروريَّ لتكييف عينه كي يتوضع بشكل مناسب بالنسبة للقرنية ولتأخذ الانطباع الضروريّ للرؤية والنظر الثابت حتى تتكمن من القيام بعمليَّة التمدد والتضيق الخاصة بها

ولشبكة العين كي لا تكون حساسة كثيراً لفعل الضوء، ولبلّورة العين تمارس حركات التقدم إلى الأمام والخلف، وكي تقوم العضلات بوظائفها، وكي تعتاد الأعصاب البصريَّة على نقل الإحساس في حجرة العين الكاملة كي تستعد لكلّ التوضّعات الدوريّة، ولكلّ الأجزاء التي تشكلها كي تنفذ بدقة رؤية ذلك الجزيء الذي نفهم منه شيئاً بسيطاً حين يتعلَّق الأمر بإثبات أنَّ العين تعتاد على الرؤية تلقائياً من ذاتها.

أعترف أنَّه لم تكن سهلة تلك اللوحة التي عرضتها للتو أمام عين المولود أعمى، فإنَّه لن يميز الأجزاء إلا إذا جمع العضو كلّ تلك الشروط السابقة، ربَّما يكون ذلك عمل لحظة ما، لن يكون من الصعب ربَّما أن يطبقَ ذلك التفكير الذي تم الاعتراض عليه على آلة شبه مجمعة، على ساعة على سبيل المثال، وأن نبرهنَ تفاصيل كلّ الحركات التي تحصل في الطبل، الصاروخ، العجلات، الألواح، المسننات... وإنّه يلزم خمسة عشر يوماً للإبرة كي تجتاز الفضاء خلال ثانية واحدة.

إذا أجابوني أنَّ هذه الحركات فوريَّة، فإنَّني سأردّ أنَّ هذه الحركات ذاتها ما يحصل في العين عندما تفتح للمرة الأولى وجميع الأحكام التي تتشكل نتيجة لذلك، ومهما كان الأمر من الشروط المطلوبة من العين كي تكون مخصصة للرؤية، علينا أن نتفق أنَّ حاسة اللمس لا تعطينا إيَّاها أبداً، وإنَّ ذلك العضو «العين» يكتسب من تلقاء ذاته وبالنتيجة يتوصل إلى تمييز الاشكال التي ترتسم داخله دون مساعدة حاسة أخرى، لكنَّنا نقول مرة أخرى: كيف يتم ذلك الأمر؟ ربَّما يتم بشكل أسرع ممَّا نعتقد، حين ذهبنا لنزور معاً عيادة الحديقة الملكيَّة (Jardin Royal[1])، تذكرين يا سيدتي، تجربة المرآة المقعّرة، وذلك الرعب الذي انتابك عندما مرّ أمامك طرف سيف بذات السرعة التي بلغتها يدك المتقدمة نحو طرف المرآة؟

مع ذلك لقد اعتدتِ أن تجدي فيما وراء المرآة كلّ الأشياء التي ترتسم فيها، إذاً فإنَّ التجربة ليست ضروريَّة، وليست

(1) الحديقة الملكيَّة (Jardin Royal) هي الحديقة التي تقع مقابل متحف اللوفر في باريس.

قابلة للفشل كما نعتقد كي ندرك الأشياء وصورها في مكانها الطبيعيّ. ليس هناك أيّ غرض يقدم لي أيّ دليل حتى ببغاؤك في أوَّل مرة رأى نفسه في المرآة قرّب منها أنفه[1]، وعندما لم يقابل نفسه، ظنّ أنه شخصٌ آخر يشبهه، وعندها قام بالاستدارة حول المرآة، لا أريد أن أعطي أيَّة شهادة حول الببغاء أكثر من تلك القوة التي تقدمها، لكنَّها تجربة حيوانيَّة لا يوجد فيها أيّ حكم مسبق، مع ذلك، هذا يؤكد لي أنَّ المولود أعمى لم يميز شيئاً خلال شهرين وإن ذلك لم يذهلني أبداً.

أستنتجُ منه فقط ضرورة تجربة العضو، ولسنا بحاجة لحاسة اللمس كي تتم التجربة أبداً، ولن أفهمَ ذلك إلا حين يتوجب علينا وضع المولود أعمى لعدة أيام في الظلام وحين نجعله يواجه الملاحظات أن نقدّم لعينيه حريَّة التجريب، ممَّا سيجعله بوضع أفضل في الظلمات من كونه في وضح النهار، وألَّا نمنحه في كلّ هذه التجارب إلَّا

(1) 00 وردت الكلمة في النص (bec) أي المنقار، لكنَّه يقصد بها أنفه.

نوعاً من الأفق، أن يدبّر نفسه على الأقلّ في المكان الذي تزداد أو تنقص فيه درجات الوضوح، ولستُ جاهزاً لعدّ هذه الأنواع من التجارب صعبة جداً وغير مؤكدة، وإنَّ أقصر تجربة في الواقع مهما كانت طويلة في الظاهر هي أن نعطي الأفضليَّة لموضوع المعارف الفلسفيَّة التي تجعله قادراً على المقارنة بين وضعين قد مرّ فيهما وأن يخبرنا عن الاختلاف بين حالة رجل أعمى ورجل مبصر.

ومرة أخرى، ماذا يمكننا أن نتوقع بدقة من شخص لم يعتد أبداً على التفكير والعودة إلى نفسه، وهومثل أعمى شيسلدين (Cheselden) يجهل منافع الرؤية لدرجة أنَّه يصبح غير مكترث بمساوئها ولا يتخيل أنَّ فقدانَ هذه الحاسة سيسيء بشكلٍ كبير إلى متعه؟

إنَّ سوندرسون (Saunderson) الذي لم نخلع عنه لقب الفيلسوف لم تكن لديه تلك اللامبالاة ذاتها، وأشك كثيراً أنَّه كان يوافق رأي كاتب الكتاب المميز «دراسة حول الأنظمة»، وأتوقع أنَّه آخر الفلاسفة الذي قدَّم

نفسه في نظام صغير عندما ادّعى أنَّ حياةَ الإنسان إن لم تكن سوى إحساس غير منقطع من المتع ومن الآلام، وإن كان سعيداً في حالة ما دون أيّ تفكير بالألم، أو تعيساً في الحالة الأخرى دون أيّ تفكير بالسعادة، وأنّه قد استمتع في حياته أو تألم، إذا كانت تلك هي طبيعته فإنَّه لن يرى حوله كي يكتشف إذا كان هناك شخص ما يراقب محادثته أو أنَّه يفعل شيئاً ما ليؤذيه، وإنَّ هذا المرور المتعاقب بين الحالة الأولى والثانية هو الذي يجعله يفكر،...

هل تعتقدين يا سيدتي أنَّنا ننتقل من مفاهيم واضحة إلى مفاهيم واضحة أخرى لأنَّها «تتوقف على طريقة فلسفة الكاتب أي الطريقة الجيدة»؟ هل نتوصّل بشكل قاطع إلى تلك النتيجة؟ المسألة ليست مسألة سعادة أو تعاسة كما هو الأمر في الظلمات والنور، إنَّ الحالة الأولى لا تكمنُ في الحرمان التام والوسيط من الحالة الثانية، ربَّما سوف نتأكد أنَّ السعادة ليست أقلّ أهميَّة من وجود الفكرة إذا استمتعنا بها دون أيّ انحدار ما، لكنَّني لا أستطيع أن أقول بدون أيّ تعاسة.

من الطبيعيّ جداً أن نرى هذه الحالة كحالة اضطراريَّة، أي أن نشعر بأنفسنا أبرياء، ونعتقد مع ذلك أنَّنا مذنبون، وأن نتهم أو نعذر الطبيعة، كما يفعل السيد كونديياك (Condillac) تماماً حين يظن أنَّ الطفلَ لا يشتكي عندما يتألم؛ إنَّه لم يتألم من دون انقطاع منذ أن وجد في هذا العالم؟

إذا جاوبني أحدهم أنَّ الوجود والألم هما ذات الشيء، بالنسبة إلى الشخص الذي تألم دائماً، وأنَّه لا قد يتخيل أنَّه يمكنه توقيف ألمه دون أن يدّمر وجوده، ربَّما قد أجيبه أنَّ الإنسان التعيس بشكل دائم لن يقل «ماذا فعلت كي أتألم»؟ لكن من سيمنعه من القول «ماذا فعلت كي أوجد على هذه الحياة»؟

مع ذلك لا أرى لماذا لم يكن الفعلين مترادفين «يوجد ويتألم»، الأوَّل بالنسبة للكتابة النثريَّة والآخر للشعر، كما هي الحالة بالنسبة إلى التعبيرين «أعيش وأتنفس».

في المجمل ستلاحظين بشكل أفضل مني يا سيدتي

أنَّ هذه النقطة قد كتبها السيد كوندياك (Condillac) بصورة جيدة، وأخشى أنَّك ستقولين عندما تقارنين نقدي مع تفكيره أنَّك تحبين أكثر خطأً للسيد مونتين (Montaigne) على حقيقة للسيد شارّون (Charron)، ربَّما تقولين لي أنَّ هناك بعض الفروق بينهما.

نعم يا سيدتي هذا هو شرط دراستنا، هذا هو رأيي حول المسألتين السابقتين، أعتقد أنَّ المرة الأولى التي تفتحت فيها عينا المولود أعمى إلى النور لم يرَ شيئاً أبداً؛ إنَّ عينه تحتاج إلى بعض الوقت كي تجرب ذاتها، لكنَّها تجرب ذاتها تلقائياً، وبدون مساعدة حاسة اللمس لن يتوصل لتمييز الألوان ولكن -على الأقل- تمييز الحدود الكبيرة بين الأشياء.

انظري الآن إذا كانت تلك الفرضيَّة التي اكتسبها من قدرته هذه في زمن قصير جداً وحصل عليها حين حرَّك عينيه في الظلمات، عندما ننتبه إلى طريقة إغلاقها وأن نحثّه على هذا التمرين خلال زمن معين بعد العمليَّة وقبل

التجارب، وهنا أقول دعينا نرى إن كان يتعرف عبر النظر إلى الأجساد التي قد لمسها، وإذا كان قادراً أن يسميها بالأسماء التي تناسبها؟

هذه هي المسألة الأخيرة التي عليّ أن أحلها، ولكي أحصل عليها بطريقة تعجبك، باعتبار أنَّك تحبين المنهجيَّة، سأميّز بين عدَّة أنواع من الأشخاص الذين يمكن تطبيق التجارب عليهم، إذا كانوا أشخاصاً سوقيين، بدون تربية، بدون معارف وغير مجهزين.

أعتقد أنَّه خلال عمليَّة تصحيح البصر سيتم تدمير عيوب ذلك العضو، فالعين ستشفى، والأشياء ستنطبع داخلها بشكل منعزل أو منفصل، لكن هؤلاء الأشخاص ليسوا معتادين على أيّ نوع من التفكير، ولا يعرفون سوى حاسة واحدة هي الفكرة، وهي ليست في مجال المقارنة مع الأشكال التي تلقوها عبر اللمس، أو التي وصلت إليهم عبر العيون، سيقولون: هذه دائرة، وهذا مربع، دون أن يكون هناك عمق لأحكامهم، حتى لو كانوا متفقين تماماً

أنّهم لن يدركوا أيّ شيء في تلك الأشياء التي تمرُّ أمام مرآهم كالأشياء التي مرَّت أمام ملمسهم تماماً.

هناك أشخاص آخرون يقارنون بين الأشكال التي يدركونها والأجساد التي تنطبع أمام أيديهم، والتي يطبقون عليها -عبر الفكرة- طريقة لمسهم لتلك الأجساد البعيدة، ويقولون عن شيء ما إنَّه مربع، وعن آخر إنَّه دائرة، دون أن يعرفوا لماذا؛ إنَّ مقارنة الأفكار التي تلقوها عبر اللمس وتلك التي كونوها عبر الرؤية لا تتشكل داخلهم بشكل منفصل تماماً كي تقنعهم بحقيقة أحكامهم.

سوف أتطرق يا سيدتي دون انقطاع إلى حالة الميتافيزيقي الذي نطبق عليه تجربتنا، ولا أشك أبداً أنَّ هذا الأخير لم يفكر منذ اللحظة التي قد بدأ فيها بإدراك الأشياء بشكل منفصل كما لو أنَّه رآها كلّ حياته وبعد أن قارن الأفكار التي مرت أمام عينيه مع تلك الأفكار التي تلقاها عبر اللمس؛ إنَّه لن يقولَ بنفس التأكيد الذي نؤكده أنت وأنا

«سوف أعتقد وبقوة أنَّ هذا الجسم الذي سميته دائرة دائماً، والجسد الآخر الذي سميته مربعاً دائماً، لكنَّني سأكمل ذات اللفظ الخاص بكلّ منهما، ومن أخبرني أنَّه إذا اقتربت منهما أنَّهما لن يختفيا تحت يديّ؟».

ما أدراني إذا كانت الأشياء التي تمرُّ تحت ناظري هي الأشياء التي تمرُّ تحت ملمس يدي دائماً؟ أجهل إذا كان ما هو مرئي أمامي محسوس لكنَّني حين لن أكون في موضع الشكل ذلك، وأنَّني سوف أصدق كلام الأشخاص المحيطين بي وأنَّ ما أراه تماماً، وأراه حقيقةً هو ما قد لمسته، إنَّني لن أتقدم أبداً.

إنَّ هذه الأشياء قد تتحول في أيديهم، ويمكن أن يرسلوا لي عبر اللمس إحساسات متناقضة مع تلك التي شعرت بها عبر الرؤية، وقد أضيف -أيّها السادة- إنَّ هذا الجسم يبدو لي مربعاً، وذلك الآخر يبدو لي دائرة، لكنَّني لست على دراية إذا كانت تلك الأجساد متساوية في حاسة اللمس أو الرؤية، وإذا بدلنا بين المهندس والميتافيزيقي،

أي بين سوندرسون (Saunderson) ولوك (Lock)، فإنَّ هذا الأخير سيقول إذا كان يصدق عينيه، أي حول الشكلين اللذين يراهما؛ إنَّ هذا الشكل يدعوه مربعاً، وذلك الآخر يسميه دائرة، وقد يضيف «إنَّني ألاحظ أنَّه في الشكل الأوَّل يمكنني ترتيب الخيوط وأن أضع المسامير ذات الرؤوس الكبيرة التي ستحدد نقاط الزوايا بالنسبة للمربع، إلا أنَّني لا أستطيع إلَّا في الشكل الآخر أن أدرج وأضع الخيوط التي كانت ضروريَّة لإظهار خصائص الدائرة؛ إنَّها دائرة! وها هو المربع إذاً!

لكن ربما سيكمل مع فكرة لوك (Lock)، أي ربما إنَّه عندما أمرر يديّ على هذين الشكلين ربما يتحول أحدهما إلى الآخر، أي بطريقة يمكنني أن أظهر فيها للعميان أنَّ الشكل ذاته سيخدمني بإبراز خصائص الدائرة، وبالنسبة إلى الأشخاص المبصرين خصاص المربع، ربَّما أرى مربعاً، وفي ذات الوقت قد أشعر أنَّه دائرة، سوف يقول «لا إنَّني أخطئ».

بالنسبة إلى الأشخاص الذين أظهر لهم خصائص الدائرة والمربع فهم لم يضعوا أيديهم على المجسمين، ولم يلمسوا الخيوط التي مددتها والتي تحدد أشكالي، مع ذلك إنَّهم يفهمونني، ولم يكونوا يرون مربعاً عندما كنت ألمس الدائرة، وبدون هذا الشيء لن نتفاهم أبداً.

رسمت لهم شكلاً وأظهرت لهم خصائص الآخر، أعطيتهم خطاً مستقيماً عبر سهم الدائرة، وسهم الدائرة عبر خط مستقيم، لكن باعتبار أنَّهم كانوا يسمعونني جميعاً، فإنَّ كلَّ الأشخاص يرون بنفس الطريقة، إنَّني أرى شكلاً مربعاً وكانوا يرونه مربعاً وشكلاً دائرياً ما كانوا يرونه دائرة، لهذا فقد سميته مربعاً، وسميته دائرة، بدلت الدائرة بالسطح، والمربع بالمكعب، لكن هناك دائماً شكل ما نحكم عليه عبر المسافات وليس عبر التجربة، وبالنتيجة إنَّ الشخص الذي يستخدم عيونه للمرة الأولى لا يرى إلا سطوحاً، يعرف أنَّ ذلك هو شكل الجسد، نراه صلباً وإنَّ نقاطه تبدو أقرب منا ومَّا تبدو بالنسبة إلى الآخرين.

لكن عندما يحكم المولود أعمى للمرة الأولى على ما يراه، عن ماهيَّة أو صلابة الأجسام، ربما سيكون في حالة تجعله يميز، ليس فقط الدائرة من المربع، لكن السطح من المكعب أيضاً.

لا أعتقد أنَّه يعدّه شيئاً آخر أكثر تعقيداً، يبدو أنَّ المولود أعمى الخاص بالسيد ريامور (Réaumur) قد ميز الألوان واحدها عن الآخر، وأنَّه قد يوجد ثلاثون شخصاً يراهنون مقابل شخص واحد أنَّه قد لفظ بمحض الصدفة كلاماً حول المكعب؛ أنا متأكد أنَّه من غير الممكن أن يتعرف على قفازاته، وعلى ثوب النوم، وحتى على حذائه.

إنَّ هذه الأشياء مليئة بالتغييرات الكبيرة؛ أي إنَّ هناك قليلاً من الروابط بين شكلها التام وتلك العناصر المخصصة لتزيينها أو لتغليفها، ممَّا يجعل الأمر إشكالياً مئات المرات بالنسبة لسوندرسون (Saunderson) كي يحدد ويجد استخدام جداوله.

لطالما توقع سوندرسون (Saunderson) وجود

رابط هندسي بين الأشياء واستخدامها، وهو سيدرك بعد مقارنتين أو ثلاثة النتيجة التالية: إنَّ قبعته قد صُنعت لتوضع على رأسه؛ إنَّه لا يوجد أيّ شكل اعتباطي يجعله يتوه في ذلك، لكن هل فكر في زوايا وعمق قبعته المربعة؟ قد يطرح هذه الأسئلة: بماذا يفيد ذلك الصوف؟ لماذا توجد أربع زوايا وليس ست؟

إنَّ هذين التغييرين اللذين يبدوان لنا كنوع من التزيين قد يكونا بالنسبة له مصدراً للأفكار العبثيَّة أو بالأحرى مصدراً لنقد رائع لما نسميه الذوق الجيد.

عندما نوزن الأشياء بتعقل، سوف نصرّح أنَّ الاختلاف بين شخص قد أبصر دائماً لكنَّه لا يعرف استخدام شيء ما، وبين شخص قد عرف استخدام هذا الشيء ولم يبصر أبداً؛ إنَّ ذلك الفرق ليس لصالح الشخص الأخير، مع ذلك صدقيني يا سيدتي إنَّه إذا قُدّم لك اليوم وللمرة الأولى تزيين ما، فإنَّك لن تتوصلي أبداً لتخمين ما هو بالضبط، هل هو ضبط الرأس؟

إن كان صعباً على المولود أعمى الذي يرى للمرة الأولى أن يحكمَ الأشياء سواءً كان لها عدد كبير أو صغير من الأشكال التي قد تمنعه من أن يلاحظ، وهو مرتدٍ ثيابه وجالس في كرسيه عندما نضع الشيء أمامه سواء كان أثاثاً أو آلة أو شجرة تبدو متأرجحة الأوراق والأغصان، قد يظنها شخصاً يتحرك، وفيه روح، ويفكر أيضاً، لكن يا سيدتي كم تقترح علينا حواسنا الكثير من الأشياء وسيصعب علينا بدون أعيننا أن نتوقع أنَّ قطعة من الرخام لا تفكر ولا تحس!

بقي على سوندرسون (Saunderson) أن يبرهنَ إن كان متأكداً من حكمه الذي كوّنه حول الدائرة والمربع فقط؛ لأنَّ هناك حالات تكون فيها تجربة التفكير على تجارب الآخرين يمكن أن تبرهنَ العلاقة بين الرؤية واللمس، وأن تعلمه ما هو الشيء بالنسبة إلى العين، وما هو الشيء بالنسبة إلى اللمس.

مع ذلك لن يكونَ هناك داعٍ حين نقترح برهنة اقتراح

حقيقيّ دائم كما يسميه، لن يكون هناك داعٍ لنبرهن على وجوده عندما نحرمه من شهادة الأحاسيس، لأنَّك ستدركين جيداً يا سيدتي إذا كان هناك شخص يدعي أنَّ إلقاء خطين متوازيين على لوحة ما يجب أن يتمَّ عبر خطين متنافرين، وأنَّ المسارين يبدوان متشابهين، قد ينسى أنَّ الاقتراحَ حقيقيٌّ جداً بالنسبة إلى الأعمى كما بالنسبة له.

لكن الاقتراح السابق يعني شيئين بالنسبة للمولود أعمى، أي الاقتراح بالنسبة إلى الشخص الذي قد رأى منذ ولادته ولم يكن لديه إحساس اللمس، والاقتراح بالنسبة إلى شخص تتعارض لديه حاستي الرؤية واللمس بشكل دائم، ويمكننا أن نتساءل إذا كان الشخص الأوَّل قد استعاد الحاسة التي تنقصه عندما ينزع حاسة الرؤية عبر وضع شريط على عينيه هل سيتعرف على الأشياء عبر اللمس، إن كان مثقفاً، من الواضح أنَّ الهندسة قد تزوده بطريقة صحيحة وتجعله يتأكد إن كانت الشهادات حول الحاستين متناقضتين أم لا، وما عليه إلا أن يأخذَ المكعب أو المسطح بين يديه وأن يشرح خصائصهما لأحدٍ ما، وأن

يقول -إن استطاع إيصال فكرته- إنَّه يرى المكعب ذلك الشيء الذي يحس أنَّه مكعب، وبالنتيجة فهو يحمل مكعباً، بالنسبة إلى الشخص الذي قد يجهل هذا العلم، أعتقد أنَّه لن يكونَ من السهل أن يميز -عبر اللمس- بين المكعب والمسطح، وعلى أعمى السيد مولينو (Molineux) أن يميز بينهما عبر الرؤية.

أمَّا بالنسبة للشخص الذي تتناقض لديه حاستي الرؤية واللمس بشكل دائم، فلا أعرف ما رأيه بالأشكال، بالنظام، بالتناظر، بالجمال، بالقبح... وإنَّ أيَّ شيء متعلق بهذه الأشكال، قد يكون إحساس هذا الأعمى مثل إحساسنا النسبيّ باتساع ووحدة الكائنات الحقيقيَّة.

قد يقول إنَّ الجسم له شكل ما عموماً لكنَّه قد يميل للاعتقاد أنَّه ليس ذلك الجسم الذي يراه والذي لا يشعر به، وإنَّ إنساناً مثله قد يكون منزعجاً من إحساساته، لكن هذه الإحساسات لن تكون على الأرجح بحالة رضا ولا بحالة انزعاج من الأشياء، وإذا حاول الشك بأنَّ إحدى

إحساساته قد تبدو خاطئة، أعتقد أنَّه سيفكر بحاسة اللمس، وهناك مئات الظروف التي قد تدعوه للاعتقاد أنَّ شكلَ الأشياء يتغير عبر حركة يديه عليها، أي أكثر من النظر إليها عبر عينيه، ولكن نتيجة لهذه الأحكام المسبقة، فإنَّ الفرق بين المدة والرخاوة التي قد يلاحظها في الأجسام قد تحرجه كثيراً، وإن كانت إحساساتنا غير متناقضة مع الأشكال هل يعود ذلك لكوننا نعرفها جيداً، من قال لنا أنَّنا لسنا أمام شهود زور، مع ذلك نحن نحكم عليها بهذه الطريقة، للأسف يا سيدتي، عندما وضعنا المعارف الإنسانيَّة في ميزان مونتن (Montaigne)، لم نبتعد كثيراً عن اتباع طريقته، حسناً، ماذا نعرف عنها، ما هي ماديتها؟ لا نعرف شيئاً.. ما هو العقل والفكرة؟ وبشكل أقل ما هي الحركة، الفضاء والمدة؟ لا نعرف أي شيء! وماذا عن الحقائق الهندسيَّة؟

اسألي مختصين في علم الرياضيات ذوي عقل متقد، وسيعترفون لك أنَّ كلَّ الاقتراحات متشابهة، وأنَّ هناك الكثير من الأحجام المتناقضة الموزعة على محيط الدائرة

على سبيل المثال، وهي ستكرر لنا بمائة ألف طريقة مختلفة أنَّ الدائرة هي عبارة عن شكل تتشابه فيه الخطوط التي تنزلق من مركزها إلى محيطها، إذاً فنحن لا نعرف تقريباً أيّ شيء، ومع ذلك كم من الكتّاب ادّعوا أنَّهم يعرفون أيّ شيء في كتاباتهم!

لا أتنبأ لماذا لا يملّ الناس أبداً من القراءة، دون أن يتعلموا أيّ شيء إلا إذا كان هذا الأمر عائدٌ للسبب ذاته، أي منذ ساعتين حين تشرفت بلقائك دون أن أشعر بالملل ودون أن أقول لك شيئاً ما.

مع عميق احترامي لك سيدتي

خادمك المتواضع والمطيع.

نهاية الرسالة

إضافة[1] إلى الرسالة السابقة[2]

سوف ألقي على الورق -وبدون ترتيب- ظواهرَ لم أكن أعرفها، وستفيدنا كدليل أو كنقيض لبعض المقاطع من «رسالة حول العميان».

بعد أكثر من ثلاثة وثلاثين أو أربعة وثلاثين عاماً على كتابتها، وقد أعدت قراءتها دون تحيّز، ولست مستاءً منها كثيراً، في حين أنَّ الجزء الأوَّل بدا لي أهم من الثاني، وأحسست أنَّ هذا الجزء الثاني يمكن التوسع فيه، فهو قصيرٌ بعض الشيء، وسأترك الجزأين الأوَّل والثاني على

---

(1) قمنا بضم الإضافة على «رسالة حول العميان» التي ألفها ديدرو بعد زمن طويل والتي لم تكن قد أضيفت إليها... وإن أولئك الذين يتهمون الكاتب بأنه لم يكتب أبداً إلا عبر الاندفاع وأنه كان دائماً قاسياً وحازماً فهم لم يقرؤوا بالتأكيد كل أعماله، وهذه الإضافة كافية للبرهنة على خطأهم. ب. دبينغ (B. Dep-ping).

(2) قام ديدرو بكتابة هذه الإضافات عام 1782 وألحقها بكتابه «رسالة حول العميان: من أجل المبصرين» وقد نشر العمل كاملاً في القرن العشرين. (المترجم).

حالتهما، خوفاً من أن تكونَ صفحة الشاب أفضل من إضافات العجوز.

أعتقدُ أنّني أبحث اليوم عبثاً عن أشياء قابلة للاحتمال في الأفكار وفي التعبير، وأخشى ألا أكون قادراً على تصحيح ما هو جيد فيها أيضاً؛ إنَّ رساماً مشهوراً في أيامنا يقضي آخر سني حياته وهو يمدح الأعمال الفنيَّة التي أنجزها في ريعان شبابه، لا أعرف إذا كانت الأخطاء التي يلاحظها فيها حقيقيَّة، لكنّ الموهبة التي قد تصححها أو التي لن ينالها أبداً إذا انشغل بتقليد الطبيعة إلى الحدود الأخيرة في الفن، أو إذا امتلك تلك الموهبة فهو سيفقدها، إلا أنَّ كلَّ ما يأتي من الإنسان يهلك مع الإنسان، يأتي زمنٌ يقدم فيه الذوق نصائحَ، ولا نتعرف على صحتها، لكن لن يعد لدينا القوة لمتابعتها؛ إنَّه نقص الشجاعة الذي يولد من ضمير الضعف ومن الكسل، وهو أحد نتائج الضعف والخوف، وهذا ما يقلقني في عملٍ قد يسيء أكثر مما يفيدني في تحسين عملي.

«كن شجاعاً وفي الوقت المناسب أسرج حوذيك الذي يشيخ، خشية ألا يسقط بسخرية في النهاية وتذهب جهوده سدىً[1]».

الظواهر

1- فنانٌ ما متمكن من نظريَّة فنه بعمق ولا يعطي خبرته لأي فنان آخر، أكّد لي أنَّه كان يحكم على القسم العلويّ من الأبنية عبر اللمس وليس عبر البصر، وكان يمرر يده عليها ويلمسها بين سبابته وإبهامه، كان يفعل ذلك عبر الإحساس المتعاقب الذي كان يميزه من الأجزاء الخفيفة وغير المتساوية التي كانت تفلت من عينه.

2- حدثوني عن أعمىً كان يتعرف على لون الأقمشة عبر اللمس.

(1) جملة باللغة اللاتينية كما كتبها ديدرو في نصه «Solve senescentem mature sanus equum, ne Peccet ad extremum ridendus, et ilia ducat. HORAT. *Epistolar. lib. I, Epist.* I, vers. 8, 9.» (هوراس، رسائل، فن الرسالة، المجلد 1، البيت 9،8. (المترجم)

3- يمكنني أن أذكر أحدهم يستطيع أن يميز باقات الورد بعذوبة يصرّح بها جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) لأصدقائه بشكل جدي وعبر المزح أيضاً، عن مخططه بفتح مدرسة قد يدرس فيها هذا الشخص دروساً لبائعات الورد في باريس.

4- يوجد في مدينة أميان (Amiens) صانع أجهزة أعمى يدير ورشة حرفيَّة كبيرة وبذكاء حاد كما لو كانت لديه عينان.

5- إنَّ استخدام العينين كان يمنع المبصر من التحكم بثقة يده، ولكي يحلق رأسه كان يُبعد المرآة ويقف أمام حائطٍ أعزل، وإنَّ الأعمى الذي لا يرى الخطر يصبح حازماً أكثر، ولا أشك أبداً أنَّه لم يكن يمشي بخطوة أكثر حزماً على الخشبة الضيقة والمرنة التي قد تشكل جسراً عند الجرف؛ هناك أشخاصٌ قلائل لا يخفي مظهر الأعماق الدفينة الرؤية لديهم.

6- من الذي لم يعرف أو لم يسمع عن الدافييل[1] الشهير (Daviel)؟ حضرت عدَّة مرات عملياته الجراحيَّة، قام بتصحيح البصر لحدادٍ خسر بصره بفعل النار المستمرة في فرنه، وخلال الخمس والعشرين عاماً من فقدانه للبصر، اعتاد الاقتراب من فرنه عبر اللمس، وكان يجب معاملته بشكل سيء كي يدفع لخدمة نفسه عبر الحاسة التي أُعيدت له، كان يقول له دافييل وهو يضربه: «هل تريد أن تبصر أيّها الجلاد!»، كان يمشي ويتحرك، ويقوم بكل ما نقوم به نحن وعيوننا مفتوحة، وهو كان يفعل ذلك بعيونٍ مغلقة.

يمكننا أن نستنتج من ذلك أنَّ العين، ليست مفيدة لحاجاتنا، وليست أساسيَّة لسعادتنا كما نميل للاعتقاد.

(1) جاك دافييل (Jacques Daviel)، طبيب تشريح، ولد عام 1696. عام 1728، تخصص في أمراض العيون وحصل على شهرة واسعة لمهارته، وفي شهر كانون الثاني / نوفمبر وحده، أجرى مائتان وست وعشرون عملية تصحيح بصر وقد نجح منها مائة واثنان وثمانون عملية، وقد مات عام 1762.

ما هو الشيء في هذا العالم الذي لا يؤدي الحرمان الطويل منه لأيّ ألم، والذي لا يجعلنا فقدانه غير مبالين إن لم يعد منظر الطبيعة ساحراً بالنسبة إلى أعمى دافييل؟ هل هو رؤية امرأة عزيزة على قلبنا؟ لا أعتقد ذلك مهما كانت نتيجة ما سأرويه.

نعتقد أنَّه إذا أمضينا وقتاً طويلاً دون أن نرى فإنَّنا لن نتعب أبداً من النظر، إنَّ هذا ليس صحيحاً، ما الفرق بين العمى اللحظي والعمى الاعتيادي؟

7- إنَّ عمل دافييل المتقن كان يقود المرضى الذين كانوا يطلبون مساعدته في كلّ مناطق المملكة وفي مخبره، وإنَّ شهرته قد جلبت له حشداً فضولياً متعلماً وغفيراً.

أعتقد أنَّني كنت أشكل جزءاً من هذا الحشد في ذات اليوم مع السيد مرمونتيل (Marmontel)، كان المريض جالساً وقد صُححَ بصره، وضع دافييل يده على عينيه وقد فرغ للتو من فتحها على الضوء، كانت هناك امرأة مسنة واقفة إلى جانبه، وكانت تعيرُ انتباهاً شديداً

لنجاح العمليَّة، وترتعد بكل أطرافها إثرَ كلّ حركة من حركات الطبيب، وقد أومأ لها هذا الأخير بالاقتراب منه وجعلها تجلس على ركبتيها مقابل المريض، أبعد يديه، ثم فتح المريض عينيه، لقد رأى وصرخ «آه! إنَّها أمّي!».

لم أسمع في حياتي أبداً صرخة مثيرة للشفقة كتلك الصرخة، يبدو لي أنَّني ما زلت أسمعها حتى الآن، أغمي على المرأة العجوز، وقد ذرف الحاضرون دموعهم، وتساقطت الصدقات من صررهم.

8- من بين كلّ الأشخاص الذين حرموا من النظر تقريباً عند ولادتهم، إنَّ الشخص الأكثر دهشةً الذي وجد بينهم وسيوجد هي الآنسة ميلاني دوساليناك (Mélanie de Salignac) ابنة السيد دولا فارغ (M. de la Fargue) وهو قائد عام في جيوش الملك، كان عجوزاً قد مات للتو عن عمر اثنين وثمانين عاماً، وقد كان مثخناً بالجراح ومقلداً بالأوسمة، وكانت ابنة السيدة بلاسي (Mme Blacy)، التي ما زالت تعيش ولا يمضي

يوم واحد دون أن تأسف لحالة الطفلة التي كانت تصنع سعادة حياتها، وعن إعجابها بكل معارفها.

تتميز السيدة بلاسي (Mme Blacy) بصفاتها الأخلاقية الباهرة، ويمكننا أن نسألها حول حقيقة سردي، وبفضل إملائها أكتب سيرة حياة الآنسة دو ساليناك (De Salignac)، وأجمع الخصائص التي فلتت مني خلال تواصل حميمي بدأ معها ومع عائلتها العام 1760 واستمر حتى العام 1763 وهو عام وفاتها.

كان لديها عمق فكريّ كبير، وعذوبة ساحرة ودقة منقطعة النظير في الأفكار وفي السذاجة، كانت إحدى عماتها تدعو أمها لتساعدها لكي ترضي تسعة عشر شخصاً من الأوستروغوس[1] قد دعتهم إلى العشاء،

(1) يستخدم الكاتب ديدرو كلمة «Ostrogoths» وهذه الكلمة تعود إلى أصل ألماني، وترمز لأقلية عرقية تنتمي لأحد شعوب ألمانيا القديمة التي هزمتها قبائل الهانز (Huns) عام 375 بعد الميلاد، وقد اجتاح الأوستروغوس إيطاليا تحت قيادة الملك تيودوريك (Théodoric)، وفي عام 526، هزم الإمبراطور الروماني جوستينيان (Justinien) مملكتهم التي حكمت بين الأعوام (535-555).

وكانت ابنة أخيها تقول: «إنَّني لا أنفذ أيّ شيء لعمتي العزيزة، ولماذا يجب أن نرضي هؤلاء الأشخاص التسعة عشر؟ بالنسبة لي لا أريد أن أرضي إلا هؤلاء الذين أحبهم».

بالنسبة لها، كانت نبرة الصوت تشعرها بالانجذاب أو النفور تماماً كما يشعر أيّ شخص مبصر تجاه شكل شخصٍ ما، وكان لأحد أقاربها، وهو جامع عام في المالية، دعوى سيئة مع عائلتها، ولم تكن تتوقعها، كانت تقول بدهشة: «من كان يتوقع أن يكون صوته عذباً؟»، عندما كانت تستمع للغناء، كانت تفرق بين أصوات الأشخاص السمر والأشخاص الشقر، وعندما كانوا يحدثونها كانت تحكم على حجم واتجاه الصوت الذي كان يصطدم بها من الأعلى ومن الأسفل إذا كان الشخص كبيراً، ومن الأسفل إلى الأعلى إذا كان الشخص صغير القامة، ولم تكن تهتم للنظر، ذات يوم سألتها عن السبب فأجابتني: «إنَّني سأتمتع حينها بعينيّ فقط، في حين أنَّني أتمتع بعيون الجميع، وإنَّه عبر هذا الحرمان، أصبحُ موضوع اهتمام

مستمر وإشفاق، وفي كل لحظة يجبرونني على فعل شيءٍ ما، وفي كل لحظة سأكون مدينةً لهم، للأسف! إذا كنت مبصرة فعندئذٍ لن يهتموا بي».

إنَّ أخطاء البصر قد قلَّلت أهميته بالنسبة لها، كانت تقول: «أنا على باب مدخلٍ طويل، وهناك بقربه شيء ما، أحدكم يراه وهو يتحرك، وأحدكم يراه وهو ساكن، أحدكم يقول إنَّه حيوان، والآخر يقول إنَّه إنسان، وحين نقترب منه يبدو أنَّه جذرٌ ما، والجميع يجهل إذا كان البرج الذي يرونه عن بعد دائرياً أم مربعاً، أنا أتحدى زوابع الغبار، في حين أنَّ أولئك الذين يحيطون بي يغلقون عيونهم، ويصبحون تعساءً، وخلال يومٍ كامل أحياناً لأنَّهم لم يغلقوها قبل الأوان؛ إنَّ جزءاً غير قابل للرؤية كافٍ كي يعذبهم بقسوة».

عند اقتراب الليل كانت تقول إنَّ حكمنا سوف ينتهي، وإنَّ حكمها سوف يبدأ، ونستنتج أنَّ -هي تعيش في الظلمات مع عادتها بالتصرف والتفكير خلال ليلٍ أبديّ-

صعوبة النوم التي تغضبنا لا تثير انتباهها.

لم تكن تسامحني لأنَّني كتبت أنَّ العميان المحرومين من مظاهر الألم لابد أن يكونوا قساةً. كانت تقول لي: «وهل تعتقد أنَّك تسمع الشكوى مثلي؟ هناك تعساء يعرفون أن يتألموا دون أن يشتكوا»، وأضافت «أعتقد أنَّني أتنبأ بوجودهم قريباً، وأنَّني لن أشكو حالتهم أكثر من ذلك».

كانت مولعة بالقراءة، وعاشقة للموسيقا، كانت تقول «أعتقد أنَّني لن أتعبَ أبداً من سماع الغناء أو عزف أي آلة مهما علا صوتها، وإذا كانت هذه السعادة في السماء هي الوحيدة التي قد أحصل عليها، فلن أكون غاضبة من وجودي فيها، أنتم تفكرون فقط عندما تسمعون الموسيقى أنَّها هي الأعنف من بين الفنون الجميلة دون استثناء الشعر ولا فن الخطابة، وأنَّ راسين (Racine) ذاته لم يكن يعبّر بعذوبة القيثارة، وأنَّ لحنه كان قاسياً ورتيباً مقارنة بلحن الآلة، وإنَّكم رغبتم دائماً بإعطاء

أسلوبكم قوةً وخفةً لألحان باخ (Bach)، بالنسبة لي، إنَّها أجمل لغة أعرفها.

في اللغات المحكية كلما لفظنا أفضل نطقنا مقاطعها بشكلٍ أفضل، في حين أنَّه في اللغات الموسيقيَّة، إنَّ الأصوات الأبعد من النبرة المفتوحة إلى النبرة الحادة، ومن النبرة الحادة إلى النبرة المفتوحة، هي متشابكة وتتابع بشكل غير محسوس إلى أن تشكّل مقطعاً طويلاً، وفي كل لحظة يتغير بانثنائه وتعبيره، في حين أنَّ اللحن يصبّ هذا المقطع على أذني، وإنَّ التناغم ينفذه دون غموض على مجموعة من الآلات المختلفة: اثنتان، ثلاث، أربع أو خمس، وهي جميعاً تسعة تساهم بتحصين عبارة الأولى، إنَّ الأشخاص المغنين هم مؤدون يمكنني الاستغناء عنهم، عندما يكون قائد الأوركسترا هو الإنسان العبقري الذي يعرف أن يقدم تميزاً ما لغنائه.

في صمت الليل على الأخص، تكون الموسيقا تعبيريَّة وشهيَّة، وأنا مقتنعة أنَّ الأشخاص الشاردين بعيونهم،

هؤلاء الذين يبصرون لا يستطيعون لا سماعها ولا الإصغاء إليها كما أسمعها وأصغي إليها.

ولماذا يبدو مدح الموسيقا الذي يُقدم لي فقيراً وضعيفاً؟ لماذا لم يستطيع أحدٌ أن يحدثني عنها كما أحسّها؟ لماذا أتوقف في وسط حديثي باحثةً عن الكلمات التي تطبع إحساسي دون أن أجدها؟ هل لأنّها لم تولد بعد؟ لا أستطيع أن أقارن أثر الموسيقا إلا بالنشوة التي أشعر بها عندما، بعد غيابٍ طويل، أسارع لأرتمي بين ذراعيّ أمي التي أفتقد لصوتها، أطرافي ترتعد، تذرف دموعي، وركبتاي تنسابان من تحتي كما لو كنت سأموت من الفرح».

كان لديها أعذب شعور بالعفة، وعندما سألتها عن السبب قالت لي: «إنّه أثر خطاب أمي، لقد كررت لي عدة مرات أنَّ رؤية بعض أجزاء الجسد تدعونا إلى المأثمة، أعترف لك إذا تجرأت على قول ذلك إنّني فهمت هذا الأمر منذ زمن قصير، وربما كان عليّ أن أنهي حالة البراءة

تلك».

ماتت نتيجة تورّم في الأجزاء الطبعيَّة الداخليَّة، ولم تمتلك الجرأة أبداً بالتصريح عن ذلك المرض، كانت بسيطةً في ارتدائها لثيابها، وعلى شخصيتها، وبوضوح ظاهر للعيان، ولم تكن واثقةً أبداً أنّها فعلت ما كان عليها فعله كي تُبعد القرف الناتج عن المأثمة المعاكسة الصادرة عن الأشخاص المبصرين، وإذا قُدِّم لها شراباً كانت تعرفه من ضجة السائل الذي كان يسقط، عندما كان كأسها يمتلئ، كانت تأخذ الأطعمة بدقة، وباتجاهها الصحيح بشكل مذهل، وكانت تمازح الآخرين أحياناً، وهي تقف أمام المرآة كي تعتني بهندامها، وتقلد كل مظاهر المرأة المغناج التي تتحلى بها، كانت تلك القردة الصغيرة ذات حقيقة تجعلنا ننفجر من الضحك، ومنذ نعومة أظفارها، قام الآخرون بدراسة أحاسيسها التي تبقّت لها، كانت درجة نجاح تلك الإحساسات أمرٌ لا يصدّق، قد علمتها حاسة اللمس حول أشكال الأجساد خصائصَ مجهولة من قبل الأشخاص الذين يملكون

أفضل العيون غالباً.

كانت تملك حاستي السمع والشم بشكل رائع، كانت تحكم من تأثيرات الهواء ومن حالة الجو إن كان الطقس غائماً أو صافياً، وإذا كانت تمشي في ساحة أم في شارع، في شارع أم في شارع مسدود، في مكانٍ مفتوح أو في مكانٍ مغلق، في شقةٍ واسعة أو في غرفة ضيقة، كانت تقدّر الفضاء تحديداً لضجة أقدامها أو لترددات صوتها.

عندما كانت تجول في منزل ما، كانت الطبوغرافيا تبقى في رأسها لدرجة أنّها كانت تنبّه الآخرين إلى المخاطر الصغيرة التي كانوا يتعرضون لها، كانت تقول: «انتبهوا إنَّ الباب هنا منخفض جداً، وهنا تجتازون عتبة»، كانت تلاحظ في الأصوات فروقاً مجهولة بالنسبة لنا، وحين كانت تسمع شخصاً ما يتكلم تحفظه للأبد، لم تكن حساسة جداً لمفاتن الشباب، وكانت مصدومة قليلاً من تجاعيد الشيخوخة، كانت تقول إنّها لم تكن تخشى إلا مزايا القلب والعقل، وكانت تلك إحدى محاسن الحرمان من

البصر وخصوصاً بالنسبة إلى النساء، كانت تقول: «لن يجعلني رجلٌ جميل أن أدير رأسي أبداً»، كانت واثقة من نفسها! وكان من السهل جداً، ومن العار أن نخدعها! وكان جعلها تعتقد أنَّها وحيدة في شقة ما هو خدعةٌ غير قابلة للعذر.

لم يكن لديها أيّ نوع من الخوف والذعر، وتشعر بالملل نادراً، فقد كانت الوحدة تسمح لها أن تكتفي بذاتها، كانت تلاحظ أنَّه في العربات العموميَّة عند الرحلة وفي نهاية النهار، يصبح الناس صامتين، كانت تقول: «بالنسبة لي لست بحاجة لأن أرى الناس الذين أحبّ التعامل معهم»، ومن بين كل الصفات، كانت تظهر اللطافة والمرح، كانت تتكلم قليلاً وتسمع كثيراً، كانت تقول: «أنا أشبهُ العصافير، أتعلم الغناء في الظلمات»، وحين كانت تقارن بين ما كانت تسمعه من يوم لآخر، كانت تثور من تناقض أحكامنا، ولا تبالي إن مدحها أحدٌ ما، أو إن عنّفها أشخاصٌ بدون أيّ إحساس.

علّموها القراءة بعلامات مقطعة وكان صوتها رائعاً، كانت تغني بذوق، كان يمكن أن تقضي حياتها في حفلة أو في الأوبرا، ولم يكن هناك سوى الموسيقا الصاخبة التي كانت تضجرها. كانت ترقص ويعجبُ رقصها الآخرين، كانت تعزف بشكل جيد على آلة الفيولا[1]، وقد اكتسبت من هذه الموهبة طريقة للبحث عن الشباب من جيلها، وقد تعلمت الرقص الفرديّ والجماعيّ على الموضة.

كانت أكثر أخت يحبها أخوتها وأخواتها، تقول: «أنا ممتنةٌ لعجزي، يتعلق الناس ويعتنون بي عبر المجهود الذي قمت به كي أتعرف عليهم كي أستحقهم، أضف إلى ذلك أنَّ إخوتي وأخواتي لا يغارون مني، لو كان لديّ عيون لكان ذلك على حساب عقلي وقلبي، لديّ قدرٌ كافٍ من الأسباب كي أكون جيدة! ماذا سأصبحُ إذا فقدت الأهمية التي أحظى بها؟»، وحين تلاشت ثروة أهلها، كانت

(1) يستخدم ديدرو كلمة «viole» وهي الكلمة القديمة لكلمة الفيولا المأخوذة من اللغة الإيطالية، وهي آلة يتدرب عليها أبناء الطبقة الأرستقراطية في الغرب. (المترجم).

خسارة سادة البيت هو الشيء الوحيد الذي تأسفت عليه، لكنَّهم كانوا يتعلقون بها ويقدرونها كثيراً، لدرجة أنَّ المهندس والموسيقي كانوا يترجّونها بإلحاح كي تقبل دروسهم مجاناً، كانت تقول لأمها: «ماما، ماذا أفعل؟ إنَّهم ليسوا أغنياء، وهم بحاجة لكلّ وقتهم».

علموها الموسيقا عبر علامات بارزة كانت توضع على خطوط واضحة على سطح طاولة كبيرة، كانت تقرأ العلامات بيدها، وكانت تنفذها على آلتها، وفي غضون زمن قصير من الدراسة تعلمت العزف على جزء من المقطوعة الأطول والأكثر صعوبةً، وكانت تعرف بعض عناصر علم الفلك وعلم الجبر والهندسة، وتقرأ لها أمها كتاب الآب دولاكاي (L'abbé de la Caille)[1]، وتسألها أحياناً إذا كانت تسمع عنه، فكانت تجيبها: «بدون عناء»، كانت تدّعي أنَّ الهندسة هي العلم

(1) الآب دولاكاي (L'abbé de la Caille) هو أحد علماء الفلك الفرنسيين الذين عاشوا في القرن الثامن عشر (1713-1762) وكان عضواً في الأكاديمية الملكية للعلوم.

الوحيد للعميان، لأنَّها كانت تطبّقها بدقة، ولم تكن بحاجة لأيّ مساعدة كي تتقنها.

كانت تضيف: «إنَّ المهندس يقضي معظم حياته مغلق العينين»، رأيتُ الخرائط التي دَرَست الهندسة عليها؛ إنَّ الخطوط الموازية والخطوط الطوليَّة مصنوعة من قطع النحاس، تميّز حدود الممالك والمناطق عبر أطراف الخيطان الحريريَّة والصوفيَّة الضعيفة أو القوية، وتميّز الأنهار والجبال برؤوس دبابيس غليظة أو لا، وتميّز المدن المهمة وغير المهمة عبر نقاط غير متساوية من الشمع.

ذات يوم قلت لها:

- آنستي تخيلي مكعباً.

- أنا أراه.

- تخيلي نقطة في مركز المكعب.

- تخيلت ذلك.

- ومن هذه النقطة، اسحبي خيطان مستقيمان وصليهما بالزوايا.

حسناً، سوف تقسّمين المكعب إلى ستة أهرامات متساوية.

وأضافت وحدها:

- سيكون لكل هرم المساحة ذاتها، وقاعدة المكعب ذاتها ومنتصف ارتفاعه.

- هذا صحيح، لكن أين ترين هذا؟

- أراه في رأسي مثلك».

أعترف أنَّني لم أتصور أبداً كيف كانت تتخيل ذلك في رأسها دون أن تلوّنه، هل تشكل هذا المكعب من ذاكرة إحساسات اللمس؟ هل أصبح عقلها نوعاً من اليد التي تتحقق عبرها المواد الملموسة؟ هل نشأ عبر الزمن نوع من التراسل بين حاستين مختلفتين؟ لماذا يوجد هذا التبادل عندي ولا أرى أي شيء في رأسي إن لم ألوّن؟ ما هو خيال الأعمى؟ إنَّه ليس من السهل أن نشرح هذه الظاهرة كما

نتخيل.

كانت تكتب عبر دبوس وتوخز صفحتها بورقة ممتدة على إطار تجتازه شفرتان متوازيتان ومتحركتان، ولا يوجد أيُّ فراغ بينهما إلَّا فاصل بين خطٍ وآخر، وكانت تستخدم الكتابة ذاتها في الجواب، وتقرأها بطرف إصبعها على القطع غير المتساوية من الدبوس أو الإبرة التي قد جربتها على الوجه الآخر من الورقة.

كانت تقرأ كتاباً لم تُوضَع علاماته إلَّا من جهة واحدة، وقد طبع برولت (Prault) كتاباً بهذه الطريقة وفقاً لاستخدامه، وقد أُدخل في مجلة ميركور (Mercure) في ذلك الوقت إحدى رسائله.

بواسطة الإبرة، كان تصبر على نسخ نصوص الملخص التاريخي للرئيس هينو (Hénault)[1] وقد حصلت من

(1) شارل جان فرانسوا هينو دارمورزين (Charles-Jean-François Hénault dllArmorezan) عاش في باريس (1685-1770) وكان يلقب بالرئيس هينو، وهو كاتب ومؤرخ فرنسي.

أمها السيدة بلاسي على هذه المخطوطة الفريدة، وهذه حادثة نعتقد بصعوبة، بالرغم من شهادة عائلتها كلها، شهادتي، وشهادة عشرين شخصاً ما يزالون أحياءً، أنَّه في قصيدة مكونة من خمسة عشر بيتاً، إن أعطيناها الحرف الأول ورقم الأحرف وكل كلمة مكونة منها، فإنَّها ستجد القصيدة المقترحة، كم كانت غريبة هذه الفتاة! وقد جرّبت هذا الأمر على خطابات كوليه (Collé)[1] الغامضة، وكانت تصادف أحياناً عبارة أكثر سعادةً من عبارات الشاعر.

كانت تُدخل الخيط في ثقب الإبرة الأكثر نحافة، وهي تدخل خيط الحرير على سبابة يدها اليسار، ثم تسحب هذا الخيط عبر عين الإبرة الموضوعة بشكل موازي، أو تسحب خيط الصوف وكان طرفهُ متمدداً جداً، وكانت تتقن أيّ نوع من الأعمال الصغيرة: تطريز

(1) شارل كوليه (Charles Collé) هو شاعر من القرن الثامن عشر (1709-1783)، كان يكتب قصائد غامضة تسمى أمفيغوريس (*amphigouri*) وهي مكونة من لازمات طويلة.

الأقمشة، الصرر المليئة أو المتناظرة، المناسبة للموضة الدارجة، والصرر ذات الرسوم المختلفة والألوان المتنوعة، كانت تصنع الحلى والأساور والأطواق بواسطة حبات من الزجاج كما لو كانت حروفاً من حروف المطبعة، لم أكن أشك أنَّها لم تكن مؤلفة حروف جيدة على حد مقدرتها.

كانت تلعب بشكل جيد لعبة قلب الأوراق[1]، لعبة الوسيط واللعبة الرباعيَّة[2]، وترتب أوراقها بنفسها وتميزها عبر ملامح صغيرة تتعرف عليها عبر اللمس، ولم يكن يتعرف الآخرون إليها لا عبر النظر، ولا عبر اللمس.

في لعبة قلب الأوراق، كانت تغيّر علامات أوراق

---

(1) لعبة الريفرسيس (Reversis) هي نوع من أنواع الورق السائدة في القرن الثامن عشر، أصلها إسباني وتقوم على مبدأ يربح من يخسر أولاً في كشف الأوراق المقلوبة.

(2) تقوم لعبة الورق، الكادري (Quadrille) أو اللعبة الرباعية على توزيع الأوراق لأربعة أشخاص وبمقدار متساوٍ من الأوراق.

الآس، وخاصَّةً الآس ذا المربعات أو ذا القلوب، والانتباه الوحيد الذي كان يشدّ الآخرين إليها هو أنَّها كانت تسمي الورقة قبل أن تلعب بها، وإذا حصل أن هُدّدَ الآس ذو القلوب، كانت تبتسم على شفتيها ابتسامة خفيفة ولم تكن تستطيع أن تضبط نفسها رغم أنَّها كانت كتومة.

لقد كانت فتاةً مؤمنة بالقدر، وتعتقد أنَّ الجهود التي كنَّا نقوم بها كي نفلت من قدرنا، لم تكن تفيدنا إلَّا بإيصالنا إلى هذا القدر، وكيف كانت آراؤها الدينية؟ لقد كنت أجهلها، إنَّه سرّ كانت تحتفظ به احتراماً لأمها المتدينة، لم يبق لي إلَّا أن أعرض أفكارها حول الكتابة، الرسم، النحت، التلوين، لا أعتقد أنَّنا نستطيع أن نكوّن رؤى أقرب من الحقيقة، وهكذا نأمل أن نحكم عبر الحوار التالي الذي أحاورها فيه، وكانت هي من بدأته:

- إذا بدأت بالخط بواسطة قلم على يدي، على أنفي، على فمي، شكل رجل، امرأة، أو شجرة، بالتأكيد لن أخطأ

أبداً، وإنَّني لن أصابَ باليأس إذا كان الخط صحيحاً، وأتعرف على الشخص الذي رسمتم صورته عليّ، ستصبح يدي مرآة حساسة بالنسبة لي، لكن الفرق كبير بين حساسيَّة هذه اللوحة وعضو النظر.

- أخمنّ إذاً أنَّ العين هي لوحة حيَّة، وذات عذوبة غير متناهية، إنَّ الهواء يطرق الشيء، وهذا الشيء ينعكس على العين ويستقبل عدداً لا متناهياً من الانطباعات المختلفة وفقاً لطبيعته وشكله ولونه، وربما وفقاً لخواص الهواء التي لا أعرفها والتي لا تعرفونها أكثر مني أيضاً، وليس لدينا إلَّا تنويع هذه الإحساسات التي تنطبع بالنسبة لكم.

- إذا كان جلد يديّ مساوياً لعذوبة عيونكم سأرى عبر يدي كما ترون عبر عيونكم، أتخيل أحياناً أنَّ هناك حيوانات عمياء، ولكنَّهم ليسوا أقلّ بصيرة من الحيوانات المبصرة.

- وماذا عن المرآة؟

- إذا كانت كلّ الأجساد ليست كالمرآة وذلك لوجود عيب في مادتها، ممَّا يوقف انعكاس الهواء. أميل أكثر لهذه

الفكرة، وإنَّ الذهب، المال، الحديد، النحاس المطروق تصبح مواد خاصة بثني الهواء، وإنَّ الماء المتحرك والجليد المقطع يفقدان هذه الخاصيَّة.

- إنَّه إذاً تنوع الحاسة، وبالنتيجة خصوصيَّة انعكاس الهواء في المواد التي تستخدمونها، كلّ هذا يميز الكتابة من الرسم، والرسم من الختم، والختم من اللوحة.

- الكتابة، الرسم، الختم واللوحة من لون واحد، هي لوحات متفاوتة الألوان.

- لكن حين لا يكون هناك سوى لونٌ واحد، ما علينا إلَّا أن نميز هذا اللون.

- يبدو أنَّ هذا هو عمق اللوحة، كثافة اللون ومادة المستخدِم التي تدخل في انعكاس الهواء تنوع مطابق مع تنوع الأشكال، في العموم لا تسألني أيّ شيء آخر، هذه حدود علمي.

- سأشقى بدون جدوى كي أعلمك أشياء أخرى.

لم أخبركم كلّ ما استطعت أن ألاحظه حول هذه الشابة

العمياء حينما تعرفت عليها بشكل أكثر، وأسألها بذكاء، لكنّني أعطيكم كلام شرف أنّني لم أقل أيَّ شيء إلّا من محض خبرتي.

لقد ماتت وعمرها اثنان وعشرون عاماً، مع ذاكرة كبيرة، وكم هائل ومتساوٍ من المعلومات، ولو كان لديها المزيد من الأيام، لاستطاعت أن تمضي في دروب العلم أجمعها.

كانت أمها تقرأ لها التاريخ، وتلك وظيفة مهمة وممتعة لها ولأمها أيضاً.

السيرةُ الذاتيَّةُ للمترجم

منتجب صقر (1976-): باحثٌ، ومترجمٌ، حاصلٌ على دكتوراه في المسرح الفرنسيّ المعاصر عام 2009 من جامعة باريس الثامنة، شاركَ في ورشات عمل مسرحيَّة حول إدارة الممثل في ديجون، باريس، أفينيون، ليون، ودرّس المسرح في جامعة باريس الثامنة عام 2008، جامعة دمشق، المعهد العالي للفنون المسرحيَّة بدمشق (2009-2017)، جامعة ليون الثانية، ويحاضر عن بعد في جامعة محمد الخامس في الرباط، المغرب، وقد ترجم مسرحيَّات فرنسيَّة صدرت في سلسلة «المسرح العالميّ» ودقق أعمالاً مترجمة في سلسلة «إبداعات عالميَّة»،

المجلس الوطني للثقافة والفنون في الكويت، وله كتب عن المسرح باللغتين العربيَّة والفرنسيَّة. نشر مقالات ونصوص مسرحيَّة في مجلة الحياة المسرحيَّة بدمشق وعلى بعض مواقع المسرح على الانترنت، وهوعضو لجنة تحكيم في شبكة أورودرام للترجمة المسرحيَّة الأوروبيَّة (Eurodram) للجنتين العربيَّة والفرنسيَّة، ويشارك منذ 2020 كمترجم ودراماتورج مع فرقةCie Bruno Böglin في مدينة ليون الفرنسيَّة، ومنذ 2019 يعملُ في حقل النشر كمسؤول العلاقات الثقافيَّة في دار النشر «الدار الليبراليَّة» (دمشق، ألمانيا).

Lettre sur les aveugles

رسالة حول العميان

يعايـن ديـدرو حالـة العالـم الرياضـي المشـهور ساندرسـون (Saunderson) الإنكليـزي الأصـل الـذي خضـع لعمليـة تصحيـح بصـر، ويستشـهد بالرسـوم التوضيحيـة والملاحظـات التـي تصـور نظريـات هـذا العالـم المولـود أعمـى، كمـا يقـدم العديـد مـن المواقـف والأمثلـة التـي تـدل علـى قـوة بصيـرة العميـان ويسـأل أسـئلة ميتافيزيقيـة تسـعى إلـى فهـم آليـة الأفـكار المميزة التي تجول فـي عقول العميان.

أحدثـت هـذه الرسـالة ضجةً كبيـرة فـي الأوسـاط الدينيـة فقـد تـم اتهامـه بنشـر أفـكار جريئـة ومعاديـة للعقائـد الدينيـة الكنسـية آنـذاك ثـم حُكـم عليـه بالسـجن لمـدة ثلاثـة أشـهر فـي حصـن قصـر فانسـين (Chåteau de Vincennes) فـور صـدور الكتـاب عـام 1749، بسـبب الآراء الماديـة التـي تضمنتها الرسالة رغم أنه قد نشرها في النسخة الأولى باسم مستعار.

يعدّ هـذا الكتـاب مـن أهـم انتاجـات ديـدرو الأدبيـة فـي عصـر التنويـر، فهـو يقـدم محاكمـة منطقيـة وجميلـة لكاتـب اشـتهر ببراعـة اسـتنتاجاته الفلسـفية التـي شـكلت أساسـاً ومرجعـاً لمفكـري عصـر التنويـر ومـا زال تأثيره الفكري يمتد إلى يومنا هذا.

Diderot

SCAN ME

ISBN 978-91-89760-65-3
9 789189 760653

LIBERAL LIBRARY